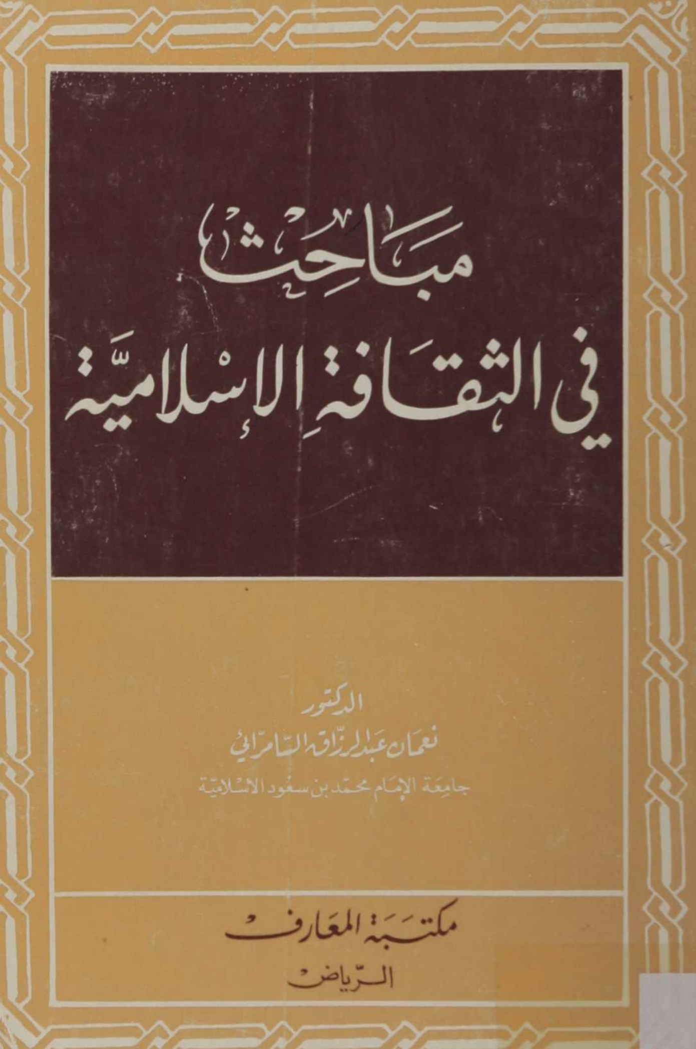

مباحث
في الثقافة الإسلامية
الدكتور
نعمان عبدالرزاق السامرائي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
مكتبة المعارف
الرياض

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

« المقدمة »

تتجمع الأمة عادة حول بعض المفاهيم الأساسية. وتعمل جاهدة لتعميقها، وتتخذ لذلك شتى الوسائل، من نشر للكتب، وعقد للمؤتمرات، وصياغة لمناهج التربية والتعليم، كما تضع كافة وسائل الإعلام في خدمة هذا الغرض، وهذه المفاهيم يمكن أن نسميها « ثقافة الأمة ».

وهي ليست معلومات نظرية، كما قد يتبادر الى الذهن، بل فكر وتطبيق، وكل أمة تحاول أن تؤصل ثقافتها، باحثة عن جذورها في أعماق التاريخ، جاهدة للكشف عما يميزها عن الأمم الأخرى، لذلك لا نجد في تاريخ العالم أمة أهملت ثقافتها، أو هجرتها الى غيرها، أو تركتها حتى ذابت في غيرها، او أهملتها حتى اضمحلت او ماتت، في عقول أبنائها، ذلك أن الثقافة هي بطاقة تعريف بالأمة « هوية » ومن لا ثقافة خاصة له، فلا هوية له. والثقافة تعني في كثير من الأحيان، منهج الأمة في الحياة، ومبادئها التي تؤمن

بها، ونظمها التي تعمل وتعيش وفقها، كما أن الثقافة هي تراثها الذي لا ترضى له الضياع، وشخصيتها التي لا ترضى لها المسخ، وأي أمة ترضى بضياع ثقافتها او استبدالها، فتلك أمة تنسلخ عن جلدها، وتتحول الى أمة أخرى، أو هي في سبيل الانقراض او التمزق.

وهذا لا يعني الجمود أو التحجر، ولكن نظراً لقوة تأثير الثقافة، فهي لا تغير بجرة قلم، ولا تموت في يوم او ساعة، وجميع من حاولوا تغيير ثقافة أمتهم، اصطدموا فعرضوها على السيف، أو أزالتهم بحد السيف.

إن كثيرا من الأمم كالصين واليابان، واليمن مثلا عاشوا فترة في حدود مغلقة، لا تؤثر الأمة على غيرها ولا تتأثر، ولكن مع التقدم في وسائل الاتصال من طيران وبواخر الى قطارات وسيارات، ومن راديو الى تلفزة الى أقمار صناعية ووكالات للأنباء وغير ذلك، صار غلق الحدود أمر مستحيل، لأن بإمكان هذه الوسائل أن تقتحم على الإنسان غرفة نومه، وأن تؤثر على عقله وقلبه شاء أم أبى، من هنا برزت قضية جديدة يمكن أن نسميها «احتكاك الثقافات»، ونظرا لحجم الهجمة الثقافية الغربية، على العالم ككل، ونحن منه، وجدنا أنفسنا فجأة أمام غزو ثقافي لم نعرف له في تاريخ العالم مثيلا، فهو مجهز بألف وسيلة ووسيلة، ومن يستعرض المجتمعات الإسلامية اليوم يجد جماعات كبيرة، حافظت على ثقافتها الإسلامية، لكنها لا تعرف شيئاً سواها، بل هي

تدرسها وقد تحفظوا كما كانت منذ قرون، ثم نجد الى جانب هؤلاء، مجموعات تعلمت الثقافة الغربية، حتى لم تعد تعرف شيئاً سواها، فصرنا نجد في مجتمعاتنا صنفين هذا مشرق وذاك مغرب، وكل يحاول أن يسحب الأمة خلفه، وأن يوليها وجهته، أما الأمة بسوادها العام فوقفت مشدوهة بين الطرفين، فلا هي قادرة على الانسلاخ عن ثقافتها وشخصيتها، ولا هي متمكنة من السير مع أصحاب الثقافة الإسلامية، لأن أمور الحل والعقد، خرجت من أيديهم الى غيرهم.

لقد أصبحت أمتنا عرضة لتيارات كثيرة، وزاد الطين بلة أن وجد بيننا من يؤمن بهذه التيارات، ويدعو لها، ومن هنا بات من الضروري تحصين الأمة وتقوية مناعتها ضد هذا الغزو الجديد، فهو يحتل القلوب والعقول، وهو استعمار خبيث، ولكن حامله من أبنائنا لا يتصوره كذلك، بل يعتقده الخير المحض، والتقدم الكامل، وغاب عن هؤلاء أنهم يقودون أمتهم الى الفناء، ويقتلون شخصيتها المميزة. من هنا يبرز دور الثقافة الإسلامية، كما يبرز دور حملتها، فهي وسيلة حفظ الأمة وشخصيتها من الضياع، وأصحابها هم القاسم المشترك بين حملة العلوم الإسلامية فقط، وحملة العلوم الغربية. فهم الحلقة الوسط بين الاثنين، وهم العارفون بالعقليتين، المتكلمون بهذا اللسان وذاك.

إذا كنا نستبشر خيراً بهذه الصحوة الإسلامية، والانعطاف نحو المنابع فإذا حدث وابتعدت الثقافة عن هذه القيم، ووقع

الانفصال بينهما، فإن النتائج تصيب الثقافة والقيم، كما تصيب الأمة كذلك.

أما الثقافة فتضمر وتتجمد، وأما القيم فتخمد، وقد يتسرب الشك فيها للنفوس، أما الأمة فتأخذ بالإنحطاط، وكل ذلك يكون مقدمة لما هو أشد وأنكى، التفرق والتمزق والتطاحن، والتحول الى شيع وأحزاب، يحتربون بينهم، ويتركون جانبا عدوهم، والويل لأمة تصل الى هذه الهاوية.

د. نعمان عبدالرزاق السامرائي

الرياض

« الثقافة »

جاء في مختار الصحاح[1]: (ثقف الرجل: من باب ظَرُف، صار حاذقاً حفيفا فطناً.... وثقف من باب طرب، لغة فيه. والثقاف: ما تسوى به الرماح....).

وجاء في القاموس المحيط[2]: (ثَقُفَ ككُرم وفَرِحَ ثقُفاً وثَقَفاً وثقافة: صار حاذقاً خفيفاً فطناً، فهو ثَقُف..... وثقّفه تثقيفاً سوّاه...).

وتستعمل الثقافة في اللغة- حاليا- بمعنى الحذق، وسرعة أخذ العلم وفهمه. وقد تضاف الى علم معين، فيقال: ثقافة فقهية، وثقافة تاريخية، وهكذا.

فإذا قيل: فلان مثقف، فهذا يعني صاحب ملكة في فهم العلوم والفنون والمعارف، وهكذا يجري استعمالها هذه الأيام.

يقول المرحوم المبارك[3]: (... وقد أصبحت كلمة الثقافة في

(١) مختار الصحاح، مادة ثقف ص٨٤

(٢) قاموس المحيط مادة ثقف والمعجم الوسيط كذلك.

(٣) لمحات في الثقافة، الشيخ عمر عودة الخطيب ص ٢٨

الاصطلاح العرفي، في العربية وغيرها، تفيد معنى ما يكتسبه الإنسان، من ضروب المعرفة النظرية، والخبرة العملية، التي تحدد طريقته في التفكير، ومواقفه في مختلف طرق الحياة، من أي جهة حصلت تلك المعرفة، وتلك الخبرة).

وقد جاء في معجم الصحاح[1] الغريب: (... الثقافة كل ما فيه استنارة للذهن، وتهذيب للذوق، وتنمية لملكة النقد والحكم، لدى الفرد او في المجتمع ....) ولكن بعض «الغربيين» يراها أوسع من ذلك فيقول[2]: (.... ذلك الكل المعقد الذي ينطوي على المعرفة والعقائد، والفن والاخلاق، والقانون والعرف، وغير ذلك من القدرات).

كما يرى آخرون أن الثقافة ليست سوى الدين، وذهب البعض الى أبعد من ذلك، حين قال بأن الثقافة، أشمل من الدين.

ولا ننسى أن الدين - في الغرب - يعني العبادة، لا أكثر، وعلى ذلك فالثقافة فعلاً أشمل من الدين، بالمعنى الغربي.

والملاحظ أن الثقافة هي من أبرز العوامل التي يجري التأثير عليها في المجتمع وبها. خصوصا في عصرنا الحاضر، بعد أن رفض العالم الاستعمار بشتى صوره، باستثناء «الاستعمار الثقافي» الذي بقي بعيدا عن هذا الهجوم.

---

(١) الصحاح في اللغة والعلوم، نديم وأسامة مرعشلي ص ١٢٢ الطبعة الأولى.

(٢) لمحات في الثقافة ص ٣٢.

ولأول مرة في التاريخ نجد لغة كالانكليزية مثلاً، تفرض على شعوب يقارب عددها الالف مليون، دون أن يكون لهذه الشعوب صلة بالانكليز، لكن هذه الشعوب تتبناها وتجعل منها لغتها الرسمية، بينا تثور فرنسا ومثلها انكلترا، لمجرد دخول مفردات قليلة، من لغة أجنبية الى لغتها.

علاقة الثقافة بالقيم:

إن ثقافة أية أمة، تقوم أول ما تقوم، على أساس القيم السائدة في تلك الأمة، وهي في العادة وثيقة الصلة بعقيدتها وفكرها، وكذلك سلوكها ونمط حياتها، وما تريد تحقيقه من أهداف، وما تتطلع إليه من غايات، وهي وثيقة الصلة جدا بتراث الأمة الروحي والنفسي، كما هي محور تاريخ الأمة.

وكلما نمت ثقافة أمة نمواً طبيعياً، في جو من قيمها، وفي حدود ما ترسمه عقيدتها وفكرها، فإنها تكون قادرة على حل المشكلات، والتغلب على الصعوبات. أما إن كانت غير ذلك، فهي تفقد التأثير، ثم لا تلبث أن تصبح لوناً للتعبير الشيق الجميل، أو تتحول الى فلسفة نظرية، تخترع لها المبررات، أو تغرق في الجدل العقيم، وفي كل ذلك تصبح معزولة عن التأثير، ومعالجة المشكلات، التي يبحث عنها عادة لدى ثقافات أخرى، قد تكون مغايرة لها كل التغيير.

لذا يجب أن تكون الثقافة تعبيرا حياً، عن المفاهيم الأصلية،

كما تلتزم بعقيدة الأمة وأهدافها، وتحاول - فيما تحاول - الدفاع عنها وتعميقها في وجدان الأمة، والكشف عن جميع المخاطر التي تتهددها، او تحاول حرفها عن أهدافها، أو تحول دون الوصول إليها.

لقد مال الشباب المسلم نحو الإسلام، حتى صرنا نرى طلبة الطب والهندسة أكثر حماساً واندفاعاً نحو الإسلام وثقافته من طلبة الشريعة. - كما سجلت ذلك صحافة الغرب - فإننا نتطلع أن تكون الثقافة الإسلامية هي الثقافة العامة لكل شبابنا، والأرضية التي يقفون عليها، فتوحدهم في الفهم والتصور والهدف.

كما نأمل أن تكوّن في أجيالنا مناعة ضد التسلل الفكري المعادي، وأن تساهم في بناء الثقة بالنفس.

ولما كان للإسلام في كل جانب من جوانب الحياة رأي، لذلك ينبغي دراسة الإسلام دراسة شاملة، حتى يخرج الدارس بفكرة واضحة تمكنه من نقد غيره، وكشف الصواب من الخطأ، كما تحمله معرفته للإسلام على الإلتزام به، والعمل بما يعلم، إذ لا خير في علم لا ينفع صاحبه، والله الموفق والمعين.

خطة البحث

١- تعريف بالمادة ومباحثها، بيان هدفها ومهمتها، ضرورة دراسة الإسلام من جميع جوانبه.

الفصل الأول:

٢- أساس الإسلام ومبادؤه الكلية.
(أ) نظرة الإسلام العامة الى الكون والإنسان والحياة.
(ب)عموم شريعته وشمولها لجوانب الحياة كلها.
(العقيدة، العبادة، الاخلاق، الأحوال الشخصية، المعاملات، العقوبات، الجهاد، العلاقات الدولية).

الفصل الثاني:

٣- أصول العقيدة الإسلامية.
الإيمان بالله تعالى، الإيمان بالملائكة والغيب، النبوات والوحي، اليوم الآخر، القضاء والقدر، أثر العقيدة الإسلامية في الحياة. خصائص العقيدة الإسلامية (انسجامها مع الفطرة والعقل، قضاؤها على الأباطيل والخرافات والأوهام).

الفصل الثالث:

٤- العبادة، وظيفتنا ومكانتها في الشريعة الإسلامية. أنواعها وخصائصها. أثرها في الفرد والجماعة.

الفصل الرابع:

٥- الاخلاق:

مكانة الاخلاق في الإسلام، أثرها في تربية الفرد ورقي الأمة، خصائص الأخلاق الإسلامية وجوب مراعاتها في الحياة العامة والخاصة. محاسبة النفس وتهذيبها. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل الخامس:

٦- المعاملات المالية:

حث الإسلام على الكسب المشروع وتنمية المال بالطرق الحلال،طرق تنمية المال واسباب التملك، حقوق الإسلام الواجبة في المال (النفقات، الزكاة، الخراج، الفيء، الصدقات، الأوقاف).

موقف الإسلام من الربا والأحتكار، موازنة نظرية الإسلام في المال والنظرية الرأسمالية والإشتراكية.

الإسلام هو الحل للمشكلة الاقتصادية.

الفصل السادس:

٧- الاحوال الشخصية:

الأسرة لبنة المجتمع، الزواج سنة من سنن الإسلام، تماسك الأسرة وأثره في كيان المجتمع، قيام الأسرة على المحبة والتراحم توزيع المسئولية على الأعضاء، الحقوق والواجبات، مكانة المرأة ووظيفتها (مقارنة بين مركزها في الإسلام وما عداه، تعدد الزوجات وحكمته في الإسلام، رد ما يثار حوله من شبهات، تعدد أزواج رسول الله ورد الشبهات، الطلاق وحكمته مع رد الشبهات).

الفصل السابع:

٨- العقوبات:

اعتماد الإسلام على تربية الفرد تربية صالحة، تهيئة البيئة الفاضلة في المجتمع المسلم، الشذوذ الفردي وأثره في إفساد المجتمع. العقوبات في الإسلام وهدفها (منع المفسدين وردع الآخرين، حماية المصالح الأساسية)، عدالة العقوبات الإسلامية واتفاقها مع الذنب، تساوي الجميع أمامها.

الفصل الثامن:

٩- العلاقات الدولية:

علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول، الحرب والسلم في

الإسلام، المعاهدات وأنواعها، معاملة الأسرى (مقارنة بين الإسلام وغيره) الإسلام جاء بالعتق لا بالرق، أبواب تحرير الرقيق.

الفصل التاسع:

١٠ - الإسلام والتيارات المعاصرة:

مقدمة في تحديات الجاهلية القديمة والحديثة للإسلام، التيارات الفكرية الغربية (العلمانية، الوجودية، التبشير، الاستشراق) النظم المعادية: (الرأسمالية، الشيوعية) الحركات المعادية (الماسونية، الصهيونية، القاديانية).

الفصل الأول

أســس الإسلام ومبادؤه الكلية[1]

الفرع الأول: نظرة الإسلام للإنسـان والكون والخالق:

هناك معارف أساسية يبحث الإنسان عنها منذ أقدم العصور ومنها:

(أ) من خلق الكون؟

(ب) منَ نظمه هذا التنظيم؟

(جـ) متى خلق الإنسان، ومن حدد له حقوقه وواجباته، وعلاقاته بالكون، وبأخيه الإنسان؟

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسان إليه للدكتور محمد يوسف موسى.
الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت.
الإسلام والحياة للدكتور محمد يوسف موسى.
الرسالة الخالدة لعبدالرحمن عزام.
روح الدين الإسلامي لطبارة.
معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان.

(د) ما هو الهدف من خلق الكون والأنسان؟

وكل عقيدة يراد لها البقاء، ينبغي أن تجيب عن هذه الاسئلة، وما يتفرع عنها، لكي تكون عقيدة شاملة، صالحة للبقاء والإتباع.

ومعلوم أن الإسلام كعقيدة، أجاب عن هذه الاسئلة، وما يتفرع عنها بكل جلاء ووضوح، ومهمة «الثقافة الإسلامية» الكشف عن ذلك، بأسلوب يجمع بين الاختصار والسلامة.

أولا: الإنسان:

١- وهو أحد المخلوقات الكثيرة في هذا الكون العظيم.

٢- لكنه يمتاز بأمور هامة، ميزه الله بها، ومنها عقله المدرك الذي يستوعب من العلوم والمعارف الشيء الكثير جدا.
ولسانه المعبر الذي هو أحد وسائل التعلم والتلقين.
وحواسه الدقيقة المرهفة، التي تعاونه في ادراك الحقائق والتوصل الى الكثير من المجهولات.

٣- ونظراً لهذه الصفات فقد كرّمه الله تعالى، وقدمه على سائر المخلوقات، فجعله خليفة في الأرض ليعمرها، ويقوم بعبادة الله، والملاحظ أن الملائكة حين استفسروا عن هذا المركز المرموق، فإن الله تعالى كشف لهم عن قابلية الإنسان في التعلم، بما لا يملكون مثلها، وكأن هذا العرض يوحي، «بإن

من أسس تكريم الإنسان «ولقد كرمنا بني ادم» هو قابليته للتعلم».

٤- وقد سخر الله تعالى للإنسان كل ما في الكون، ليستخدمه في حياته، ويستفيد منه قال تعالى: «خلق لكم ما في الأرض جميعا».

طبيعة الإنسان:

١- خلق الله الإنسان على فطرة صالحة سليمة، وزوده بقوى كثيرة، قال عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».
٢- وبناء على ما زود به، فهو قادر على فعل الخير والشر، قال تعالى «وهديناه النجدين»، فالسعيد من سار مع فطرته، واستزاد من الخير، والشقي من اتجه بنفسه نحو الشر، ودفعها للمهالك، قال تعالى: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها».

من واجبات الإنسان:

١- خلق الله الإنسان وزوده بالعقل ليستعمله في البحث والتفكير.
٢- اعتبر الإسلام البحث عبادة، ذلك لأنه يوصل إلى معرفة الله، ويقود إلى الإطلاع على عظيم مخلوقاته في الكون.

٣- إن تفكير الإنسان وبحثه يقوده الى معرفة قيمته ومزاياه، فيدفعه ذلك إلى حمد الله وشكره، على ما أنعمه عليه وميزه به.

الإنسان جسم وعقل وروح:

هذا أمر لا سر فيه، ولكن يترتب عليه:

١- الجسم: أمر الله تعالى بالعناية به، وتوفير الطعام الطيب، والغذاء الحلال، مع الراحة والرياضة، وتلبية جميع حوائجه المشروعة، ومنها الزواج، كما أمر باجتناب كل عمل ضار به، حتى لو كان عبادة متواصلة، كالصيام والقيام، ومعلوم أن الجسم قبضة من طين، قال تعالى: «إنا خلقناه من طين لازب».

٢- العقل: أمر الله تعالى بإغنائه بالعلم والمعرفة، من المهد الى اللحد، وجعل التفكير في الكون عبادة، كما جعل دراسة العلم عبادة، والتغرب في سبيله جهادا، كما جعل بيوت الله مقرا للدرس والعلم، قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

٣- الروح: وقد أمر الله تعالى بإغنائها بالعبادة، وعمل الخير والإحسان، ولا ننسى أن الإنسان نفخة من روح الله «ونفخنا فيه من روحنا».

والصلاة خير مثال لهذه العناصر مجتمعة، فللجسم منها

الحركات من ركوع وسجود، وللعقل منها القراءة والتدبر، قال عليه السلام (لك من صلاتك ما فقهت منها)، وللروح مناجاتها لربها واتصالها به.

٤- فمتى تناسقت هذه العناصر كلها، صار الإنسان سعيدا متوازنا، أما إذا طغى جانب على آخر فلا يلبث الإنسان أن ينحرف ويشقى، كما لا تلبث الحضارة أن تصاب بنفس المرض.

ثانيا: الكون:

١- المراد بالكون كافة المخلوقات علويها وسفليها، ما كان منها وما يكون، ويشمل الأفلاك السماوية وما حوت، والأرض وما عليها. وهو ما سوى الله تعالى.

٢- وهذا الكون الواسع مخلوق لله تعالى، لم يوجد صدفة، ولا تطور عن غيره يقول الله تعالى: «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟» والخلق من غير شيء لا يتصور، كما أن خلق الإنسان لنفسه أمر مستحيل.

٣- والكون أثر من آثار الخالق العظيم، ودليل على عظمة خالقه، فهو آية من آياته.

٤- وهو مسخر للإنسان، يقوم بعمارته واستخراج كنوزه، والعيش فيه.

٥- وما دام كذلك، فعلى الإنسان أن يستخدمه كما أراد خالقه، لا كما يشتهي الإنسان، فيكون سببا للدمار بدل العمران.

٦- إن الكون في سيره يتبع قواعد ثابتة، وسننا لا تتبدل، فالقمر مثلا، يدور حول الأرض بمحور ثابت ومدة معينة، (ومثله بعض الكواكب)، وهي لا تتجاوز هذه السنن.

٧- وهذا النظام مستمر ولا يخرق إلا بمعجزة.

٨- قد يتساءل إنسان: إذا كان الكون يسير وفق نظام هكذا، فما علاقته إذن بخالقه؟ إنها علاقة المصنوع بصانعه، والمخلوق بخالقه، فهو لا يخرج عن إرادته قيد شعرة، ولا يخالف ما سن له.

ثالثا: الله تعالى:

١- هو خالق الكون بما فيه.

٢- ومن الناس من ينكر وجوده، أما المعترفون بوجوده فهم يختلفون في تصورهم له.

(أ) فالفرس مثلا كان لهم إلهان، واحد للنور وآخر للظلام، وبينهما صراع وقد تغلب الثاني على الأول، فملأ الكون بالخبائث.

(ب) الوثنيون: عبدوا الأوثان، متصورين أنها الآلهة التي تنفع وتضر.

(جـ) عبد البعض الكواكب كالشمس والقمر، أو بعض الحيوانات.

(د) الديانات السماوية: تعبد الله تعالى، لكنها تختلف هي الأخرى في تصورها له.

الديانات السماوية:

وفي الديانات التي جاء بها الانبياء، والمعروف منها حاليا اليهودية والنصرانية والإسلام.

أولا: اليهودية:

١- وهي الأقدم، وكتابها التوراة، إلا أنه يوجد أكثر من توراة واحدة، فيهود (السامرة) لهم توراة تقل كثيراً عن التوراة الأخرى.

٢- التوراة سجل لتاريخ اليهود، وحروبهم وملوكهم، وما جرى لهم، هذا بالإضافة لما فيها من تشريع، وقد تلاعب فيها اليهود بالزيادة والنقصان، والجدير بالذكر أنه لم ينزل على نبي بل على عشرات في مختلف العصور.

٣- الله تعالى في التوراة يطلق أحيانا على موسى عليه السلام، كما يطلق على ذات الله (وهذا تحريف واضح).

٤- صفات الله في التوراة هي صفات البشر، فهو يغضب ويشتد

غضبه ويتسرع ويندم لطيشه، بل فيه أنه نزل للأرض وتصارع مع آدم فصرعه آدم، فندم الله لخلقه.

٥- تحتوي التوراة على جملة تشريعات يلاحظ فيها القسوة والشدة، فمن سب أباه قتل، ومن اشتغل يوم السبت رجم، وفي الحرب يجوز قتل الرجل والمرأة، والطفل والحيوان، وحرق المدن، وردم عيون الماء، ودفن الآبار، وحرق البساتين. ومن المحال أن يكون هذا حكم الله. بل في التوراة أن الحيوانات تحاكم، ويحكم عليها بالقتل، هي وصاحبها، وهذا مخالف للعقل والمنطق، وهذا من تحريف البشر، وليس من حكم الله تعالى.

ثانيا: النصرانية:

١- وهي الديانة السماوية الثانية، وكتابها الأنجيل، ونظرا لعدم كتابة شيء زمن المسيح عليه السلام، وتأخر ذلك لمدة قد تصل الى (١٥٠) عاما بعد وفاته، لذلك فقد كتبت عدة أناجيل، مما اضطر الكنيسة الى تكوين مجلس من كبار القس لدراستها، وأجازة أربعة منها، وتحريم ما تبقى من الأناجيل، ويلاحظ أن ما حرم هو الأفضل والأقرب الى الإسلام والعقل.

٢- والأناجيل مأثورات ومواعظ، سمعت من السيد المسيح، ثم دونت في وقت متأخر...

٣- الله في تصور النصرانية هو المسيح عليه السلام، فهو ابن الله، إذ أن الله تعالى- في تصورهم- حل في مريم فولدت عيسى، وهم يبدأون صلاتهم عادة هكذا (باسم الاب والابن وروح القدس) فالله تعالى ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة.

٤- والنصارى فرق وكنائس متعددة، يكفر بعضهم بعضا، ولا يعترف به كمؤمن.

٥- النصرانية خالية من التشريع، وتعتمد على ما ورد في التوراة، وهم يسمونها العهد القديم، والأناجيل العهد الجديد، والنصراني مطالب بالإيمان بالأثنين معا.

ثالثا: الإسلام:

١- هو خاتم الديانات السماوية.

٢- يحوي من التشريع أكثر مما حوت التوراة، ومن الجوانب الروحية أكثر مما حوت الأناجيل.

٣- بينه وبين اليهودية قدر مشترك، يتمثل في قصص الأنبياء، وفي بعض التشريعات.

٤- الدارس لهذه الديانات كلها وكتبها، يجد الإسلام قد جمع أفضل ما فيها، وابتعد عن الشدة والقسوة التي في اليهودية، والسلبية التي تحملها النصرانية.

الفرع الثاني: عموم شريعة الإسلام وشمولها:

١- الشريعة الإسلامية بصفتها خاتمة الشرائع السماوية، جاءت للبشر عامة، ولمختلف العصور.

٢- كما جاءت شاملة لكل جوانب الحياة ومتطلباتها، فقد قام الإسلام على أصلين أصيلين هما:

(أ) العقيدة.

(ب) الشريعة.

٣- في جانب العقيدة تحدث الإسلام عن الله تعالى وصفاته، وعن كتبه المنزلة وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وسيأتي تفصيل هذا.

٤- حوت الشريعة: العبادات، والأخلاق، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والعقوبات، والجهاد، والعلاقات الدولية، وسندرس هذا مفصلا.

الفصل الثاني

أصول العقيدة

الفرع الأول: الإيمان بالله تعالى:

١- إن الإيمان بالله تعالى ينسجم مع فطرة الإنسان، أما الكفر والإلحاد فهما طارئان على الفطرة الإنسانية، والدليل أن الإنسان آمن بالله منذ أقدم العصور، وقبل أن يتعلم أو يحصل عليه أي مؤثر خارجي.

٢- إن ما يقع تحت نظر الإنسان في الكون يدفعه للإيمان، بأن لهذا الكون خالقا مدبرا حكيما عليما، وإلا لاضطرب الكون، وأصابه الخلل.

٣- هذا القدر من الإيمان لم يمنع أصحاب الديانات عموما، والسماوية على وجه الخصوص، من تكوين صورة خاطئة عن الله تعالى وصفاته، ومصدر هذا هو التحريف والتلاعب، وإلا فإن الله تعالى وصفاته لا تتبدل ولا تتغير.

٤- الإيمان بالله أصل لكل معتقد يتفرع عنه، لذا يجب أولا توفر

الإيمان به، ثم الانتقال إلى أصول الإيمان الأخرى، لانها لا يمكن أن تثبت إلا بعد أن يثبت للإنسان وجود الله تعالى، ذلك أنه هو الذي تولى الأخبار عنها واحدا واحدا، كالإيمان بالملائكة والكتب المنزلة وغيرها.

الفرع الثاني: الإيمان بالملائكة:

١- الملائكة: مخلوقات روحانية غير مرئية، يعتمد الإيمان بها على الخبر.
٢- ما دام الإيمان بها يجري عن طريق الخبر، فينبغي أن نؤمن بها كذلك، ونتوقف عند حدود النصوص لا نتعداها، لأن هذه المعرفة لا تحصل عن طريق العقل.

الفرع الثالث: الإيمان بالكتب السماوية المنزلة:

١- أخبر الله تعالى أنه بعث في كل أمة رسولا، وأنه أنزل كتبا من عنده، ونحن نسلم بذلك، وقد سمّى القرآن هذه الكتب.
٢- أخبر الله تعالى أن هذه الكتب أصابها التحريف بالزيادة والنقص والتبديل (وقد تقدمت نبذة عنها).
٣- إن هذه الكتب ما تزال موجودة، ويمكن دراستها، وإثبات ما فيها من تحريف، وقد حصل ذلك حتى لا تباع تلك الكتب.

الفرع الرابع: الأيمان بالرسل:

١- أخبرنا الله تعالى أنه بعث في كل أمة رسولا لهدايتها، وإقامة الحجة عليها.

٢- كانت وظيفة الرسل إضافة لنقل الرسالة، وتبليغ الدعوة، إرشاد قومهم، وتدريبهم وتربيتهم، على طاعة الله، واتباع أوامره.

٣- ويمكن عقلا أن نتصور أن هداية البشر مطلوبة، وأن الله لا يمكن أن يخلقهم ثم يتركهم هملا، فلا بد من هدايتهم، أما بطريق مباشر، كأن يوحي الله تعالى لكل فرد منهم، وهذا أمر صعب جدا على البشر، لعدم قدرتهم على التلقي، وأما أن يبعث لهم ملائكة فيخاف منهم البشر، أو يبعث من بينهم رسلا، كي يقوموا بإرشادهم وتربيتهم، وهكذا كان.

٤- قد يقول شخص: لماذا لا يكتفي الإنسان بعقله؟

والجواب:

إن هناك بعض الأمور الغيبية كصفاته تعالى، واليوم الآخر والملائكة لا يمكن ضبطها بالعقل، كذلك معرفة الحلال والحرام لا يمكن تفصيلها.

وان كان العقل يدرك الضار والنافع. وكذلك لا يستطيع العقل وحده معرفة أسلوب العبادة والتقرب لله تعالى، فلا بد من وجود الرسل.

وهنا يرد سؤال: ما علاقة الدين بكل من العقل والعلم.

الدين والعقل:

١ - ينبغي أن لا نتصور أن بين العقل والدين تناقضا وتضاربا، بل للعقل ميدان، وللدين مثله، وبينهما قدر مشترك.

٢ - فالعقل يدرك القضايا العلمية والمحسوسات ويستطيع التدرج من المقدمات الى النتائج، ومن البسيط الى المركب وهكذا.

٣ - أما الدين فينفرد بالمغيبات وكل ما وراء الطبيعة من غير المنظور وكذا العبادات.

٤ - أما القدر المشترك بينهما فالتشريع، حيث يحكم الدين ويشاركه العقل في الإدراك والحكم والقبول، وهنا يظهر تعاون الطرفين، فالدين يمد بالنصوص والعقل يغنيها بالاستنتاج.

الدين والعلم:

١ - لا تناقض بين الحقائق الدينية والعلمية.

٢ - قد يحصل نوع تضارب بين بعض النظريات العلمية التي ل تستوف دراسة وتمحيصا وبين بعض الحقائق الدينية، كما قد يحصل تصور خاطىء لبعض الحقائق الدينية فيصطدم هذ التصور بحقيقة علمية.

٣- يقول بعض فقهاء الشريعة: لا تصطدم حقيقة دينية مع حقيقة علمية « فإن حصل اصطدام شككنا بالحقيقة العلمية بانها ليست كذلك.

٤- الدين يأمر بالعلم ويحث على طلبه، ويعتبر دراسته عبادة، والرحيل في سبيل طلبه جهادا، وقد وزن مداد العلماء بدماء الشهداء، وعَدّ تعلم العلوم بأنواعها والصناعات على اختلافها من فروض الكفاية، بحيث يأثم الجميع أن لم يتعلم البعض، بل يذهب بعض الفقهاء الى اعطاء الطالب المنقطع للدراسة من أموال الزكاة دون من هو منقطع للعبادة، فهل من المعقول أن يكون هذا موقف الإسلام من العلم وبينهما تناقض واصطدام؟

٥- لقد أقام المسلمون حضارة علمية راقية، ساهم في كثير من جوانبها فقهاء الشريعة وليس من المعقول أن يحصل كل ذلك وبين الإسلام والعلم عداوة.

٦- إذن فمن أين جاء افتراض العداوة بين الدين عموما والعلم؟ لقد جاء من جمود الكنيسة في أوروبا وتبنيها آراء ونظريات أثبت العلم عدم صلاحها، فقامت بين رجال العلم وبين رجال الكنيسة أعنف المعارك، ثم قامت أوروبا بتصدير هذه العداوة للعالم الإسلامي وغيره.

الوحي:

إن الإيمان بالرسل يدفعنا إلى دراسة «الوحي» باعتباره ظاهرة غيبية وخلقية بين الله ورسله.

تعريف الوحي لغة:

يطلق على جملة معاني منها الاشارة والالهام والكلام الخفي.
واصطلاحا: إعلام الله تعالى لنبي بأمر أو حكم يريده.

طرق الوحي:

١- الإلهام: وهو أن يلقي الله تعالى المعنى إلقاء في قلب نبيه من غير واسطة.
٢- بواسطة الملك: وقد كان جبريل عليه السلام يتنزل بالوحي على رسول الله فكان يراه ويسمع منه.
٣- عن طريق ما يراه النبي في منامه كرؤيا ابراهيم في ذبح اسماعيل.
٤- التكلم المباشر كما جرى لموسى عليه السلام حيث كلمه الله تعالى مباشرة.

معجزات الأنبياء:

يبقى ثمة أمر يتعلق بالأنبياء وهي تلك المعجزات التي ظهرت على أيديهم... فما هي المعجزة؟

المعجزة:

١- الامر الخارق للعادة المقترن بالتحدي السالم عن المعارضة.
٢- سميت كذلك لانها خرق للعادة يعجز الناس عنه.
٣- الغرض منها حمل الناس على تصديق صاحبها ومن ظهرت على يديه ودعمه، الا أنها ليست الدليل الوحيد على صدق النبي، بل هناك الى جانبها أدلة أخرى كصدقه وأمانته وما جاء به.
٤- المعجزة فوق العقل باعتبارها خرق لنواميس الكون، ولكنها لا تلغي العقل.
٥- المتتبع لسيرة الانبياء عليهم السلام يلاحظ أنه كلما رجع الى الوراء يجد المعجزات أكثر ولعل ذلك بسبب النضج البشري المتأخر الذي صار أحوج الى النقاش العقلي والاقناع منه الى المعجزات.
وهذا يجرنا الى الحديث عن معجزة الإسلام الخالدة.

القرآن معجزة الإسلام:

القرآن هو معجزة الإسلام الخالدة وهو معجز من عدة وجوه:
١- من جهة بلاغته وفصاحته بصفته «قرآنا عربيا» قد تحدى الله العرب به وقد مر هذا التحدي بثلاث مراحل هي:

(أ) الإتيان بمثله ككل.
(ب)الإتيان بعشر من مثل سوره ولو مفتراه.
(جـ)الإتيان بسورة.
وقد عجز العرب عن ذلك مع توفر الدواعي لرد هذا التحدي.

٢- من جهة ما حواه من أخبار الأمم التي ذهبت واندثرت، مما لا علم للعرب وغيرهم بها، والأخبار بما سيقع في المستقبل.
٣- من جهة تشريعه العادل وأحكامه السليمة، وطرقه الناجحة في الهداية.

الفرع الخامس: الإيمان باليوم الآخر:

١- وهو فرع للإيمان بالله ورسوله.
٢- إن الإنسان يرى بعض الناس يموت ظالما وغيره يموت مظلوما، وان مقتضى العدل أن يحاسب الجميع، بحيث يثاب المحسن ويعاقب المسيء، وهذا ما لا نراه في الدنيا فينبغي أن يقع في الآخرة.
٣- الإيمان باليوم الآخر هو المسألة المشتركة بين جميع الديانات ولا يعقل أن تتفق كلها على أمر لا وجود له.
٤- حيث أنه أمر غيبي لا مدخل للعقل والعلم فيه، لذا يجب الوقوف عند حد النصوص، فنؤمن بما ورد ونترك ما سواه.

الفرع السادس: الإيمان بالقضاء والقدر:

ان هذه القضية هي من معضلات البشرية، ذلك أن الكثير من الفلاسفة وغيرهم تكلموا فيها، فسببوا كثيرا من الارتباك والتشويش، وسنكتفي بتركيز البحث في نقاط:

١- ان الله تعالى متصف بالكمال المطلق، فعال لما يريد، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، ارادته هي الغالبة، وعلمه هو المحيط بكل شيء.

٢- هذا القدر من الإيمان لا يدعو للكسل والتواكل، بل الى الطمأنينة والرضا، ذلك أن الإنسان لا يعلم ما هو مقدر له، فيضطر لاتخاذ الأسباب وتحري النجاح، فان وفق فقد أصاب قدره، وإن خاب وفشل فكذلك ولو كان يعلم مسبقا ما مقدر له لجره ذلك الى القعود والكسل، ولعل خير مثال ما حدث للخليفة عمر بن الخطاب حين ذهب للشام فوجد فيها مرض الطاعون فتوقف عن دخولها، فقال له بعض الصحابة: أتفر من قضاء الله فأجابهم: نعم أفر من قضاء الله الى قضاء الله.

والمعنى: أنه لا يخرج بفراره عن دائرة القضاء والقدر، لكنه يتجاوز هذا المكان الى غيره فان قدر له الموت فسيموت.

٣- هل يعني الإيمان بالقضاء والقدر إن الإنسان ريشة في مهب الريح؟ والجواب: لا، لأن للإنسان ارادته واختياره، فهو

ينوي فعل الخير ويباشره فيثأب، كما ينوي فعل الشر ويباشره فيعاقب. وإن الله تعالى زود الإنسان بالعقل ليستعمله في حياته، فيميز طريق الخير من الشر، والحق من الباطل، قال تعالى: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»، وقال: «وهديناه النجدين» فالإنسان ليس مسلوب الارادة، لكنه غير خارج عن إرادة ربه وعلمه.

٤- فان وقع من الإنسان فعل من غير إرادة ولا قصد ولا أختيار، فانه لا يؤاخذ ولا يسأل، فالمسئولية إذن في حدود الإدراك والاختيار.

٥- من المعلوم ان كل ما في الكون من حركة وفاعلية لا يخرج عن نطاق إرادة الله تعالى وعلمه المحيط، ومشكلة الإنسان أنه بعقله المحدود وإمكاناته البشرية لا يستطيع الإحاطة بعلم الله ولا إرادته، فمن الخير له أن لا يسرح بفكره في مثل هذه القضايا التي يصعب عليه ادراكها، والإحاطة بها فعليه أن يعرف حدود قدراته فلا يتعدى ذلك، فتنزل قدم بعد ثبوتها.

الفرع السابع: أثر العقيدة الإسلامية:

١- تولد في نفس معتقدها هدوءا وطمأنينة، ذلك بأن المسلم

يعتقد أنه وثيق الصلة بربه الذي بيده مقاليد الكون الفعال لما يريد.

٢- إنها تحدد للمؤمن أهدافاً واسعة في الحياة، فتخرجه عن الأنهاك والأنغاس الكامل في المشاكل اليومية. التي تستهلك عليه كل حياته، فالسعيد في نظر الإسلام من اتقى الله، وعمل لما بعد الموت.

٣- إنها تغرس في النفس مخافة الله، وهي أساس كل الفضائل، فمن يعرف الله ويخافه، فسيقف عند حدوده، ويحاسب نفسه، قبل أن يحاسبه أحد، وان مجتمعاً تسوده مخافة الله لسعيد كل السعادة.

٤- العقيدة الإسلامية تمد صاحبها بالشجاعة، حيث يؤمن أن الأعمار والأرزاق بيد الله، فلا يخاف أحداً غيره، جاء في الحديث (إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب). فاذا كان الله تعالى هو الحافظ للنفس. والمتعهد بالرزق، فمن أي شيء يخاف الإنسان؟

٥- العقيدة الإسلامية تجعل صاحبها عفيفا شريفا، يزهد بالدنيا ويتطلع للآخرة، «وما عند الله خير وأبقى» فتمنع الصراع والأحتكاك، كما تمنع الأعتداء. كل ذلك حين تكون حية في نفس صاحبها، ينزل عند حكمها ويرضى بقضائها، فان

نامت أو تخدرت فهي كالدواء المحفوظ يأتي الشفاء بتناوله لا بحفظه وادخاره.

الفرع الثامن: خصائها:

١- إنها من عند الله تعالى، فهي تحمل الكمال بحكم كون مصدرها كاملا من كل وجه.
٢- إنها شاملة لمختلف العصور ولكل الأقوام.
٣- إنها تنسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة، فليس فيها تشدد اليهودية ولا ميوعة النصرانية.
٤- إنها موافقة للعقل والمنطق، فلم تصادم العقول، ولا حاولت فرض معلومات يأباها العقل ولا أكرهت أحداً على الإيمان بها «لا إكراه في الدين».
٥- لقد حرمت الأباطيل والخرافات والشعبذة، حتى نقل عن الرسول عليه السلام قوله (من أتى كاهنا أو عرافا يؤمن بما يقول فقد أشرك بما أنزل على محمد) كما حرمت السحر، بل أباحت قتل الساحر، واحترمت النقاش ورفضت التقليد، وأمرت المسلم بأن يفتش عن دليل الحكم، لا أن يأخذه تقليدا.
٦- فتحت باب الاجتهاد، واعتبرته طريقا لنيل الثواب، سواء أصاب صاحبه أو أخطأ، قال عليه السلام (من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد).

٧- لقد ساوت الناس في الثواب والعقاب، والفرص، فلا ميزة لجماعة على أخرى، ولا لفرد على غيره الا بالتقوى.

٨- أمرت بالعدل الكامل، لا فرق في ذلك بين عدو وصديق، قريب أو بعيد ومنعت كل شفاعة في حدود الله حتى يقتص من الظالم للمظلوم.

٩- جعلت الحكم شورى بين أفراد الرعية، فلا يستبد حاكم كما يشاء، وليس لأحد من كان أن ينشيء لنفسه حقوقا أو يتهرب من واجبات، كما منعت الدولة أن تنشيء لنفسها حقوقا غير تلك التي خصصها الله لها، قال عليه السلام: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

١٠- صانت بقوةٍ الدماء، والأعراض، والأموال، ومنعت كل اعتداء حتى لو كان كلمة أو همسة خفية كي يعيش الناس في أمان.. واطمئنان فان الخائف لا يمكن أن ينتج علما أو يقيم حضارة، أو يهنأ بعيش.

الفصل الثالث

العبادة في الإسلام(١)

العبادة في اللغة: هي الأنقياد والخضوع والذل.

وكل ما يأتيه العبد في طاعة معبوده فهو عبادة. وتستعمل العبادة استعمالا عاما وخاصا.

(أ) أما العام: فانها تعني السير في الحياة مع ابتغاء رضا الله تعالى وحسب أوامره، والتزام هذا المنهج يوسع معنى العبادة حتى يمكن أن تشمل كل مظهر مشروع من مظاهر الحياة، وكل عمل مشروع قصد به رضاء الله تعالى، فالزارع والتاجر والطبيب والمهندس متى قصد كل منهم وجه الله بعمله والتزم حدود ما أمر الله، فهو في عبادة يؤجر عليها، وقد نقل أن رسول الله عليه السلام كان جالسا مع نفر من

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان ص ١٤٧ وروح الدين الإسلامي لطبارة ص ٢٣٤ والتربية الدينية لوزارة المعارف العراقية ص ٧٧ ونحو انسانية سعيدة للدكتور المبارك ص ١٥٧ والإسلام في عصر العلم لفريد وجدي ص ٧٧٣ والإسلام لسعيد حوى ص ٩٠

أصحابه، فمر بهم رجل فذكر بعض الصحابة نشاطه وهمته في العمل وقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله، فأجابهم عليه السلام (إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله. وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان). كما نقل عنه عليه السلام أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم.

قال: أليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟

إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلية صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة.

قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر. قال (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر) والعبادة بهذا المعنى الواسع هي الهدف من خلق الإنسان وباقي المخلوقات قال تعالى: «وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون»[١].

بل ان مهمة الانبياء جميعا كانت هي الدعوة لهذه العبادة والانقياد لله تعالى، قال تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »[1]. ولكن الإنسان ما أن يستقيم فترة على عبادة الله واتباع أمره حتى ينزلق بعيدا عن هذا المنهج، فيتخذ أربابا من دون الله وشرائع دون شرع الله.

(ب) أما العبادة بالمعنى الخاص: فهي جزء من المعنى الأول للعبادة كما انها نوع من التربية على العبادة العامة الكاملة، الا أن الاكتفاء بالعبادة بمعناها الخاص يعتبر نوع انحراف، فقد نقل عن زسول الله (ﷺ) في رجل منقطع للعبادة قوله (كلكم خير منه) حين علم أنه يأكل من كدهم وتعبهم، ونقل مثل ذلك عن عمر بن الخطاب حين علم أن عابداً منقطعا يأكل من كد أخيه فقال: أخوه أعبد منه.

وظيفتها ومكانتها في الشريعة:

مهمة العبادة في الإسلام مهمة تربوية اعدادية، فهي تعد الفرد وتساهم في إصلاحه، قال تعالى: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »[2].

وجاء في الأثر (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا).

---

(١) سورة النحل الآية ٣٦.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

وتساهم العبادات في تربية الوجدان، الذي يجعل المسلم يندمج في مجتمعه كما تدفعه الى تطهير وجدانه من غير مراءاة ولا مغالاة.

ومن مهمات العبادة- بمعناها الخاص- إصلاح الفرد والجماعة، والارتفاع عن الصغائر والهموم، والمشاغل اليومية، وعن طريق ممارستها يتعرف المسلمون على غايات أسمى وأرفع، كما أنها تنبه المسلم الى وجوده الروحي، وتوثق صلته بأكبر قوة في الكون، وهي قوة الله وتعيد له ثقته بنفسه، وتعينه ليتعرف على مكانه الصحيح من هذا الكون.

ومن أهم ما تمتاز به العبادات: خلوصها لله وحده، فلا عبادة لغير الله ولو كان نبيا.

أنواع العبادات:

يمكن أن تقسم العبادة الى ظاهرة وباطنة:

(أ) العبادة الباطنة: وهي من عمل القلب كالتوكل على الله تعالى، والثقة به، والخوف منه، والاستعانة بقوته، ومحبته، ونحو ذلك.

ومتى باشر الإنسان مثل هذه العبادة أحس بها وتذوقها، وظهرت آثارها على تصرفاته وسلوكه، وطبعت حياته بسلوك واضح متميز. لأن سلوك الإنسان فرع لما ثبت في نفسه، فاذا صلحت نفسه صلح سلوكه.

فالتوكل على الله يبعد القلق، وكذلك الثقة به تعالى، أما

الخوف منه فيدفع للاستقامة، ويبعد صاحبه عن الاعتداء، والاستعانة بقوته تجعل الإنسان قويا شجاعا، ومحبته تبعث على حسن طاعته، والانقياد لأوامره.

وهكذا نجد صاحب هذه العبادات شخصا قويا عزيزا، لا يذل ولا يخاف، ولا ينافق، ويحب الخير، ويجند له نفسه، ويدافع الشر ويأباه، ولا شك أن مجتمعا تسود أفراده هذه الخصائص سيكون سعيدا جدا، وسيكون مؤثراً في غيره، قائدا له، مؤثراً في حضارة العالم.

العبادات الظاهرة: وهي الصلاة والصيام والزكاة والحج.

أولا: الصلاة:

وهي رأس العبادة الإسلامية، فرضت ليلة اسراء الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد وصفها بقوله: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله).

وهي أول ما يحاسب عليه المسلم يوم القيامة، وآخر ما يترك من أمور الدين، كما أخبر الرسول عليه السلام بقوله: (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة).

وقد بلغ من عناية الإسلام بها أن أمر بها في كل الأحوال: في الإقامة والسفر، والسلم والحرب، والأمن والخوف، والصحة والمرض.

وقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (خمس صلوات كتبهن الله على العباد، من أتى بهن لم يضع منهن شيئا استخفافا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له).

وعن عبدالله بن عمر بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوما فقال: (من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف).

تكرار الصلاة:

والصلاة أكثر العبادات تكراراً، فتتوثق صلة المسلم بربه، ويبقى محافظا على هذا الإرتباط الروحي العظيم، فلا تغلبه مشاغل الدنيا وهمومها وأحزانها، فلا تمضي ساعات على صلاة حتى تجيء أختها وهكذا.

وحيث أن هذه العبادة تتطلب أن تؤدى في مختلف الأوقات والأماكن والظروف فقد جعل الله الأرض على سعتها مسجداً طهورا، يستطيع المسلم أن يؤدي الصلاة حيث وجد، من غير مشقة ولا عنت، وقد أكد الإسلام على أن تؤدي هذه الصلاة في جماعة، وجعلها أفضل من صلاة الفرد، وذهب كثير من العلماء الى وجوب الجماعة إلا لعذر.

ومعروف أن الأعمال التي تؤدى جماعة لها تأثير على تلك الجماعة، لا يحصل مثله لمن يؤدي نفس العمل منفردا.

ومن الملاحظ أن الصلاة بعضها جهري يرفع به الصوت والبعض سري، ونحن نجد أن صلاة النهار سرية، كما أن صلاة الليل جهرية، ومن المعلوم أن الصخب يكثر نهارا، والهدوء يسود ليلا، والمصلي يخرج عن المألوف في هذا فيخافت نهاراً، ويجهر ليلا، والصلاة بعد هذا عماد الدين، ولا خير في دين من غير صلاة.

ثانيا: الصيام:

رياضة روحية، وتجربة في إضعاف سلطان العادة، فالإنسان بطبعه محتاج إلى الطعام والشراب، وقد يصل به ذلك الى تحكم الطعام في نفسه، فاذا جاع أو عطش ساءت أخلاقه، واضطربت تصرفاته، كما قد لا يكتفي بالطعام والشراب حتى يضيف لهما المنبهات بحيث يصير مدمنا لها، لا يستطيع التحرر منها، فاذا صام عنها شهراً، كانت فرصة عظيمة للاقلاع عنها، أو تخفيف أثرها.

والصوم كعبادة لا يعني التوقف عن المأكل والمذات، إنما يشمل معاني أخرى، مثل كف البصر والسمع واليد واللسان عن المحرمات، كما أن الصوم كرياضة روحية يحكم الارادة فيجعل الإنسان مالكا لزمام نفسه، بدل أن يكون أسير ميوله وشهواته، والصوم لون من ألوان إعادة الناس الى المساواة والتمرين عليها، فأهل كل بلد من المسلمين المكلفين يصومون ويفطرون في وقت

واحد وليس لأحد أن يمد في وقت الصيام أو يقصر منه، فمن انبلاج الفجر حتى غروب الشمس، هو وقت الصيام والأمساك وليس لأحد أن يعدّل فيه.

وحيث أن حياة الإنسان ليست كلها على شاكلة واحدة، ولا أطوار حياته كذلك، لهذا فقد أصبح الأفطار للبعض حين تكون ظروفهم غير طبيعية، فمن كان مريضا أو مسافرا أو مرضعا أو ذات عذر، أو طعن في السن، وبلغ مبلغ الشيوخ، فهؤلاء وأمثالهم يباح لهم الفطر.

وحيث أن الصوم أمر خفي، لا يطلع عليه الناس، وإنما يعلمه الله تعالى، لذلك فهو ينمي في النفس الرقابة الالهية، واليقين بكونه تعالى مطلعا مراقبا، متى شعر المسلم بهذه الرقابة حسنت تصرفاته، واستقامت سيرته، وكف أذاه عن غيره، فسعد في دنياه وأخراه، قال عليه السلام: (قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فانه لي وأنا أجزي به، الصيام جنة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحها، إذا افطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه).

ثالثا: الزكاة:

عبادة مالية تجب على الصغير والكبير، تؤخذ من الأغنياء

وتدفع للفقراء وهي من واجبات الدولة العامة، ولقد قاتل أبو بكر (رضي الله عنه) مانعي الزكاة وقال (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه).

وقد نقل عن رسول الله (ﷺ) قوله (من أدى الزكاة مؤتجراً - أي لطلب الاجر - فله أجره ومن منعها أخذناها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا).

ولما كانت نفس الإنسان تحب المال، وقد يزداد هذا الحب حتى يؤدي بصاحبه الى البخل والشح، كانت الزكاة دواء، فيها تزكو النفس ويتطهر المال، فتعتاد نفس المزكي على الكرم والعطف والاخاء، فتتعاطف القلوب بدل التنافر، وتزول حاجة كثير من الناس، مع الحفاظ على كرامتهم دون أن تضطر لذل السؤال وطلب المال.

والزكاة الى جانب كونها عبادة مالية، فهي وسيلة لتذكير المسلم بنصيب الجماعة في ماله الذي كسبه، كما تذكره بأنه ليس فردا يعيش لنفسه وكفى، بل هو عضو في مجتمع له حقوقه وعليه واجباته والتزاماته.

والمجتمع - أي مجتمع - لا يسعد بكثرة الجشعين البخلاء، الذين صار همهم الوحيد جمع المال وتكديسه، ولكنه يسعد كثيرا، وينشط بأفراده الذين يضحون بقسط من أموالهم، وينزلون عنها

لأخوانهم، طيبة نفوسهم، فيكون جزاء ذلك عافية في نفوسهم من مرض البخل القتّال، ورواجا اقتصاديا في مجتمعهم، فيعود عليهم ما أنفقوا ربحا حلالا، وبركة في المال والنفس والأهل.

والذين يمتنعون عن أداء الزكاة- وهي حق الفقير- لا يلبثون أن يتسلط عليهم من يأخذ هذه الأموال، فتكون حسرة وندامة في الدنيا وخزيا ونكالا في الآخرة.

وفي الحديث (... وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)، ولأهمية الزكاة صارت في القرآن قرينة الصلاة، فلا تكاد الصلاة تذكر مرة إلا ذكرت الزكاة معها.

رابعا: الحج:

باعتبار الإسلام دين عالمي يوجه دعوته الى كل البشر، فقد كان الحج مؤتمرا لهذه الشعوب، يجتمعون من مختلف الأقطار والجنسيات واللغات، في وقت واحد، في ضيافة واحدة، على مائدة متقشفة، تأكيداً لوحدة عقيدتهم وأمتهم، يشهدون الأرض التي شهدت مولد عقيدتهم، إنها مظاهرة ربانية، لها هتاف محدد، وهدف محدد ولباس موحد.

والحج فوق هذا عبادة بدنية وماليّة، لهذا جعله الله على المستطيع، وفي العمر مرة، ومثل الحج العمرة، وهي الزيارة على وجع مخصوص للطواف والسعي ابتغاء مرضاة الله، واذا ما عدت الوسائل الجامعة للأمة وعلى رأسها عقيدة الإسلام وكتاب الله

فالحج هو من بين هذه الوسائل الربانية لحفظ الأمة الإسلامية وعدم تمزقها وتشتتها.

والحج يمكن أن يكون فرصة ثمينة لرجال الإسلام للإجتماع والتدارس، ومعرفة ما لدى الغير من مشكلات وخبرات، وعلم نافع وتجارب قيمة، ويكفي فيه قوله عليه السلام (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه).

ومما لا شك فيه أن مجتمعاً يقوم أفراده بما أوجبه الله عليهم من عبادات وواجبات، سيكون موصولا بالله، سليما في بنيانه، سعيدا في حياته، وقد تعلمنا من التجارب، أن هذه الأمة تكون قوية سعيدة متى كانت مقبلة على ربها، مطيعة لأوامره، لكنها متى أدبرت عن شريعة الله، فنصيبها تسلط الاعداء والضعف والهوان.

الفصل الرابع

الأخلاق ومكانتها في الإسلام[1]

أولا: الأخلاق: هي السجايا والطباع:

وكل إنسان له قيمة بقدر ما يحمل من أخلاق حسنة أو رديئة، ويقدر اجتماعيا بحسب هذه الأخلاق.

وقد أولت الديانات عموما الأخلاق عناية خاصة، ويتضح هذا في الإسلام بشكل واضح جلي، من غير لبس ولا غموض.

ويظهر هذا الاهتمام في تأكيد الإسلام على الأخلاق الفاضلة، ودعوته للتحلي بها، وحمل النفس عليها، وصبغها بها.

وقد حوى القرآن الكريم، والسنة المطهرة، الكثير من النصوص الصريحة في ذلك، فطورا تأمر بها صراحة، وتارة تجعلها من صفات المؤمنين، ولوزام الإيمان، وأحيانا ترغب بها، وتعد صاحبها بالثواب والمنزلة الرفيعة، وأحيانا تسلك سبيل الوعيد

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان ص ٢٨٢ وروح الدين الإسلامي لطبارة ص ١٩٨ والتربية الدينية لوزارة المعارف العراقية ص ١٥٠.

والتخويف، لمن يتخلى عن هذه الصفات، فتجعله من علامات النفاق وهكذا.

بل إن الإسلام ذهب الى مدى بعيد حين ربط تشريعاته بالأخلاق، بينما ترى القوانين الوضعية تركت هذا الجانب وأهملته.

وقد ربط الإسلام الأخلاق بالعقيدة، حتى تكون مرتكزة الى أصل ثابت، تستمد منه قوتها وبقاءها، ولا تكون حاجة جمالية كمالية، يتصف بها من يشاء ويهجرها من يريد حتى لا ينضب معينها أو تفتر قوتها، فبقدر عمق الأيمان وأصالته ورسوخه في النفس يكون رسوخ الاخلاق الكريمة، وقوة فاعليتها وسلامتها.

فعلى سبيل المثال: يكون المؤمن بالله عزيز النفس، لا يذل لأحد، ولا يهون أمام قوة إلا قوة لله (إن القوة لله جميعا).

والنفع والضر، والرزق والحياة والبقاء، والموت، كلها بيد الله، ومع هذا فلا تكبر ولا تجبر، لأن رقابة الله قائمة.

وكلما كانت ثقة الإنسان بخالقه عالية، كانت طمأنينته كبيرة، فلا يقلقه شيء، ولا يخيفه أحد (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[١].

والشجاعة والجرأة والأقدام، صفات ترتبط بعقيدة الإنسان،

---

(١) سورة التوبة الآية ٥١.

ونظرته للحياة، فمتى كان يعتقد بقوله تعالى: «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة»[1] وقوله: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا»[2] متى اعتقد ذلك يقيناً، فإن القلق والخوف سيبعدان عنه، ومع هذا لا يكتفي الإسلام بالدعوة لهذه الأخلاق وتثبيت أركانها. مخافة أن تتحول الشجاعة مثلا الى أداة فتك بالغير، وعدم الخوف من الموت الى مغامرة لأجل المفاخرة، لهذا وجهها الإسلام نحو غاية عالية، هي إعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاته. فالشجاعة في نظر الإسلام لا تكون في الهجوم على المحرمات وفعلها، أو سفك دماء الابرياء، أو نهب الناس. بل يوجهها نحو معاونة الضعيف، واقتلاع الفساد، ومقاومة الطغاة، فليس من يقطع طرقا بطلا، إنما من يتقي الله البطل.

وهكذا يكون الإسلام قد أكد على الأخلاق الكريمة من جميع الجهات، وذلك بالأمر بها، والتحريض عليها، والتشويق لها والوعيد على تركها.

ثانيا: أثر الأخلاق في تربية الفرد ورقي الأمة:

للأخلاق مهمة أساسية هي إعداد الفرد الذي يريده الإسلام، وفق تصوره، لمهات الفرد في الخلق والحياة، فينشأ صالحا، بل لبنة

---

(١) سورة النساء آية ٧٨.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٥.

قوية لبناء مجتمع سليم، فمن غير المعقول أن نحصل على مجتمع قوي متماسك، من لبنات فاسدة رخوة، فما المجتمع إلا مجموعة أفراد لهم صفاتهم وأخلاقهم وتصوراتهم.

فاذا أصاب المرض أفراد مجتمع ما، فهو مجتمع مريض، وإذا انتشر الغني في بلد فهو مجتمع غني وهكذا، ولا يمكن أن نتصور أفرادا يكذبون، فإن هم اجتمعوا صار مجتمعهم صادقا، ولا أفراداً جهلة فاذا اجتمعوا صار مجتمعهم متعلما مثقفا.

ومن هنا يمكن أن نفهم قوله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[1] وليس العكس.

وإن كان المجتمع بوضعه العام، يمكن أن يؤثر في الفرد، كما أن الفرد أحيانا يمكن أن يؤثر في مجتمعه، بما يحمله من أفكار ومثل وعقيدة ومن هنا جاء الدور الكبير للرسل والأنبياء، وإن كان أساس عملهم دوما العمل الفردي أولا بتغيير العقائد والمثل، حتى إذا اجتمع للرسول جماعة استعملهم للتأثير على الآخرين، وتغيير أحوالهم.

وحيث أن للأخلاق التأثير البليغ في سلوك الإنسان، لهذا فمتى أريد إصلاح سلوك الإنسان، وما يصدر عنه، وجب أولا اصلاح خلقه، لأنه الأصل وسائر أعماله فروع، ومعروف أنه متى صلح الأصل صلح الفرع، هذا منهج الإسلام في الاصلاح، يبدأ

---

(١) سورة الرعد الآية ١٣.

من النفس فيهذبها، ويدفع عنها الخلق القبيح، ويأمرها بالخلق الكريم، ويربيها على الفضائل، ليصل من خلال ذلك الى المجتمع الكريم.

وتصور الإسلام لرقي الأمم وانحطاطها مبني على هذه القاعدة. فالأمة ترتقي متى حسنت أخلاق أفرادها وتهذبت، وتنتكس متى ساءت، فنفس الفرد هي حجر الزاوية في بناء المجتمع، وفي هذا يقول الله تعالى: «ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم»[1].

ثالثا: خصائص الأخلاق الإسلامية:

لقد نتج عن الفكرة السابقة أن ربط الإسلام بين الأخلاق الفردية الخاصة والخلق العام. ورفض التفريق بينهما، كما تفعل بعض المجتمعات اليوم، والتي جعلت للفرد الواحد شخصيتين، وجعلت لكل شخصية خلقا وسلوكا. فقالت مثلا (إن الزنا والشرب للمسكرات، ولعب القمار، وأكل المحرمات كلها من الخلق الخاص، والإنسان حر في ذلك ليس لأحد أن يتدخل في أمره، وجعلت أنماطا من السلوك والأخلاق ذات طابع اجتماعي ينبغي للأنسان أن يلتزمه ولا يحق له الخروج عليه.

والغريب في هذا التقسيم انه يجعل من الفرد الواحد فردين، يسلك في كل مناسبة سلوكا مغايرا، وكان من نتيجة ذلك أن

(١) سورة الأنفال الآية ٥٣.

ارتفعت بعض النماذج الخلقية لدرجة أن يأخذ الناس بعض حوائجهم من التاجر ويتركوا ثمنها بصندوق، دون أن ينقصوا من الثمن شيئا، أو يستأذنوا في قطف زهرة من حديقة، ولكن هؤلاء أنفسهم يقتلون الناس في مستعمراتهم، لاتفه الأسباب، أو يتعاطون الزنا علنا أو يترنحون سكارى في الشوارع العامة.

أما الإسلام فاعتبر شخصية الإنسان واحدة، ومن ثم منع هذا الازدواج، وألح على أن يكون خلقه الخاص كالعام، وظاهره كباطنه، كما أنه طالب جميع أبنائه بالتزام الخلق الكريم، حكاما ومحكومين. بل جعل التفريط بهذه الأخلاق نذير شر، وواسطة هبوط وسقوط، حتى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).

رابعا: ربط التشريع بالأخلاق:

لم يكتف الإسلام بالدعوة للأخلاق الفاضلة، وتحريم القبيح منها، حتى ربط الكثير من التشريعات بالأخلاق، وهذا النهج يختلف عما درجت عليه القوانين الوضعية، ذلك أن الشريعة تهتم اهتماما كبيرا بصلاح الفرد واصلاح الأمة، وتعمل على إقامة مجتمع نظيف في باطنه، بينما فصل رجال القانون الوضعي بينه وبين المعاني الخلقية، ومما بني من التشريعات على أساس خلقي ما يلي:

١ - تحريم الزنا :

فالإسلام ينظر للزنا على أنه دليل على خسة النفس، وسيطرة الشهوة، لذلك لم يحرمه فقط، إنما جعل له عقوبة معينة، أما القوانين الوضعية، فتجعله من المسائل الشخصية البحتة، مع أن آثار الزنا اجتماعيا وصحيا، لا تقف عند حد من يتعاطاه.

٢ - القذف:

•كما منعت الشريعة الإسلامية القذف عموما، والزنا على وجه الخصوص، وقد ألزمت القاذف تحمل مسئولية قوله، وإثبات صحة ذلك، لا فرق بين أن يكون ذلك سرا أو علنا، حفظا لكرامة الإنسان وسمعته.

اما القوانين فسارت على منع القذف حقا أو باطلا، لكنها اشترطت توفر العلانية في ذلك، وهذا أدى الى نتائج خطرة فقد أسقطت الرقابة الإجتماعية من جهة، وشجعت المسيء، ومنحته حماية قانونية فوية، ومن ناحية فرقت بين القذف العلني والسري، فعاقبت على الأول دون الثاني، فشجعت على تكوين نوعين من السلوك.

٣ - القمار:

حرمت الشريعة سائر أنواع القمار، باعتباره أكلا لأموال الناس بالباطل، ومجانبا للعفة والترفع، وأكلا للسحت، بينما أجازت ذلك القوانين باعتباره نوع كسب.

٤- الربا:

حرمت الشريعة الإسلامية الربا، جاعلة من الأخلاق الكريمة مبررا قويا لمنعه، فالإنسان ملزم بالتعفف عن استغلال حاجة الآخرين، وأكل أموالهم، من غير كد ولا كدح ولا مخاطرة، وأوجبت الشريعة معاونة المحتاج واقراضه، قرضا حسنا، بينما أهملت ذلك القوانين الوضعية، فأباحت الربا، ولكنها لم تستطع أن تسكت عن شروره فاضطرت الى تحديدة أحياناً.

٥- الغش والمخادعة:

حرمت الشريعة الغش والمخادعة في المعاملات، وأعطت المغشوش حق إبطال العقد، وأساس هذا أن الغش والخداع عمل غير كريم، وهو مناف للمروءة.

٦- الوفاء بالعقود:

أوجب الإسلام الوفاء بالعقود، من قبل الأفراد والدولة المسلمة، على حد سواء، حتى لو حدث ظلم من دولة غير مسلمة للمسلمين، فلا يحق للدولة المسلمة أن تعامل رعايا تلك الدولة بالمثل، ولو قتلت بعض المسلمين، فلا يحق للدولة المسلمة فعل ذلك.

ولو أن مواطنا أجنبيا دخل بلاد المسلمين دخولا نظاميا، ثم طلبته دولته وأبدت استعدادا باستبداله بأسير مسلم، فليس للدولة المسلمة أن تسلمه، لأنه غدر به، بعد أن دخل وهو

آمن. ولو صادرت دولة ما أموال التجار المسلمين، فلا يحق للدولة المسلمة أن تصادر أموال تجار تلك الدولة، لما في المصادرة من ظلم عظيم، ويستثنى من ذلك، اذا كانت هذه الدولة محاربة لنا.

٧- لقد منعت الشريعة الأخلاق السيئة، وجعلت كل فرد تحت سلطة ورقابة المجتمع، حيث يستطيع كل إنسان باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن ينصحه ويحاول تقويمه، ولم تقف الشريعة عند هذا، بل جعلت عقوبة لأولئك الذين تبدو منهم بوادر سوء السلوك، أو خلق يرفضه الإسلام.

خامسا: محاسبة النفس وتهذيبها:

نظرا لعناية الإسلام بالأخلاق الكريمة ومن أجل أن يكشف الإنسان بين فترة وأخرى عن مواطن الضعف والقوة في حياته، لذلك جعل الإسلام وسيلة لهذا، بأن يراجع المسلم سلوكه، ويحاسب نفسه، وفي هذه المراجعة كشف دائم لمواطن الضعف والقوة معا، كما هو وسيلة للإصلاح.

فإذا كان الفرد يعز عليه فضح أخطائه من قبل الغير، فإنه لا يرى بأسا كبيرا إن هو كشف ذلك بنفسه، وقد ورد في الحديث (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم) ولا شك أن مثل هذا النقد الذاتي للسلوك، سيعود بالخير

على صاحبه ومجتمعه، ولا يجعل الاخطاء ترسخ وتصبح طبعا ذاتيا وسلوكا شخصيا.

سادسا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطة اجتماعية، أو رقابة اجتماعية، وحيث أن تصرفات الفرد مردودة على مجتمعه سلبا أو ايجابيا، فمن حق هذا المجتمع أن يكون له نوع رقابة على الافراد، في أخلاقهم وسلوكهم، وبفضل هذه الرقابة، التي يمكن أن نمارسها عن طريق الصحافة، أو الكتابة، أو الخطابة، أو أي لون من ألوان التعبير. ومعروف أن الفرّد يبدأ أنانيا ذاتيا في تصرفاته وسلوكه، ومن هنا تكون رقابة المجتمع ضرورية للأفراد، كي لا يتفلتوا ويتصرفوا تصرفا مضرا بهم أو بمجتمعهم أو أمتهم.

وقد وصف الله تعالى هذه الرقابة بأفضل الاوصاف والنعوت فقال: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[1] وكأن الله تعالى يقول: كنتم خير أمة بفضل صفات معينة فيكم وهي: أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر، وإيمانكم بالله، بينما أخبر الله تعالى أنه لعن بعض اليهود بسبب عصيانهم وعدم تناهيهم عن المنكر.

وقد نبه الإسلام الى خطر إهمال هذه الرقابة، فنقل عن رسول

---

(١) النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ص ٤٣٨ والإسلام عقيدة وشريعة لشلتوت ص ١٩٤ واحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١١٨٦/٦- ١٧٤.

الله صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث في هذا الشأن، منها قوله عليه السلام: (لتأمرن بالمعروف وتنهونَّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم عدوكم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

وقوله: (إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها).

ولبيان قيمة هذه الرقابة وأهميتها فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام الى أمير جائر فأمره ونهاه فقتله)، ولا يقف الإسلام عند هذا بل يأمر أفراده بألا يشاركوا في ظلم أو فساد، ولا أن يشاهدوه بمجرد مشاهدة- لأن هذه المشاهدة، تجعل الإنسان يألف هذه المناظرة وقد نقل عن رسول الله عليه السلام قوله: (لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه).

وقد حدد الإسلام مراتب هذه الرقابة الاجتماعية ووسائلها فقال عليه السلام: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

المرتبة الأولى:

وهي التغير العملي، وهي أفضل المراتب، لأنها تعتمد على إزالة ما يضر بالفعل، وحيث أن هذا الجانب فيه قوة إيجابية، لا يمكن أن تتوفر لكل الأمة، إلا انها تتوفر للدولة، ولرب الأسرة،

كما تتوفر لبعض من منحتهم وظائفهم حق التربية والتهذيب، كالاساتذة ومدراء المدارس، ومن في حكمهم.

المرتبة الثانية:

وهي أقل من الأولى في التأثير، وتتمثل في الكلام شفاها أو كتابة، وفي هذه المرتبة يجتمع علماء الأمة وأدباؤها، على صعيد التوجيه والتوعية، والويل لأمة يقودها منحرفون، أو يرسم لها الطريق كذابون دجالون، فمن شأن هؤلاء أن يحسنوا القبيح، ويقبحوا الحسن ويقلبوا الأمور، حتى يختلط الحق بالباطل، فتضيع الأمة وتهلك، ومن هنا تأتي مسؤولية العلماء وقادة الفكر، فرب صيحة صادقة أحيت أمة، وأنقذت مجتمعا، ورب فرد أعزل هز دولة، والإمامان ابن حنبل وابن تيمية خير دليل.

المرتبة الثالثة:

وهي الإنكار القلبي وتلك أقل الدرجات، ما دام الإنسان ينفر من هذا المنكر ويستهجنه، فالأمة بخير، وعدد الساقطين في المنكر سيبقى على قلة، أما إذا لم تحصل على هذه المرتبة، فهذا يعني أن المجتمع بدأ يستسيغ المنكر، وهو لن يلبث طويلا حتى يسقط فيه.

الفصل الخامس

المعاملات المالية[1]

أولا: حث الإسلام على الكسب المشروع وتنمية المال الحلال:

الإسلام وهو ينظم شؤون الحياة كافة من الطبيعي أن يهتم بالوسيلة اهتمامه بالغاية، لهذا فقد حث كثيرا على الكسب المشروع، فقد قال تعالى: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور»[2]. وقال عليه السلام: (نعم المال الصالح للعبد الصالح).

إلا أن الإسلام لا يبيح كل كسب، لأنه يرفض أنواعا من الكسب اما لضررها أو لخبثها وتعارضها مع الخلق الإسلامي الكريم.

---

(١) النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ص ٣٣٦ والحلال والحرام للقرضاوي ص ٢٥٤ والتكافل الإجتماعي في الإسلام لابن زهرة ص ٤٣ والأسس الاقتصادية للمودودي ص ٧.

(٢) سورة الملك الآية ١٥.

فالإسلام مثلا يحرم الكسب عن طريق الزنا (البغاء) لقباحة الفعل وشناعته، وامتهانه لكرامة المرأة وإنسانيتها، كما حرم الكسب عن طريق الرقص وعرض الجسد، نظراً لما يصاحب ذلك من اثارة جنسية، وما قد ينتج عنه، وكذلك الفنون الجنسية بأنواعها، لانها تدفع الى الأثارة الجنسية التي ربما قادت الى الزنا.

وكذلك صناعة التماثيل والصلبان لحرمتها، ومثلها صناعة المسكرات والمخدرات لخطرها وحرمتها.

وكل ما ليس محرما، ولا ضرر فيه، ولا هو مناف للاخلاق فهو عمل مشروع وكسبه حلال.

ثانيا: طرق تنمية المال وأسباب التملك المشروعة:

لقد أوضح الإسلام المعاملات المحرمة، كما كشف عن الوسائل الحلال، حتى لا يختلط هذا بذلك، فمن الوسائل التي أباحها الإسلام لتنمية الأموال: التجارة والزراعة والصناعة. وقد رغب فيها جميعا، وحدد ما يباح منها وما لا يباح. كما حدد الإسلام أسباب التملك المشروعة فعد منها: إحياء الموات والإرث والتجارة وما يقدمه الآخرون، كالهبة وأمثالها، ولكنه حرم الربا مثلا لأسباب خلقية واجتماعية وإنسانية، كما حرم الغش والإحتكار، والتلاعب بالأسعار، لأنها إضافة لضررها وحرمتها، فانها تخالف الخلق الكريم وتتنافى معه.

ثالثا: حقوق الإسلام في المال:

الإسلام وإن اعترف بحق التملك الفردي لكنه جعل في الأموال حقوقا لله وللمجتمع، ومن هذه الحقوق حق الفقير في أموال الغني، وقد نقل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يوصي به عماله بشأن الزكاة قوله: (فإن هم أطاعوا كذلك فخذ من أغنيائهم صدقة ترد على فقرائهم).

ومعلوم أن جباية الزكاة من واجبات الدولة ومهماتها الأساسية، وهي ضريبة سنوية على رأس المال والربح، بمعدل ٢,٥٪ وهي وسيلة لتحريك أصحاب الأموال حتى لا تتكدس أموالهم، مما يحضهم على استثمارها، كما أن دفعها للفقراء يحسن من أوضاعهم ويسبب رواجا في الأسواق، فيحصل نتيجة لتداول النقود نوع من الرواج، فيكثر عدد الرابحين والمستفيدين.

والزكاة ليست على النقود فقط. بل تشمل الحيوانات، والمحصول الزراعي، والعمل التجاري، وبهذا يتبين أن حصيلتها لن تكون قليلة، بل انها تكفي لسد حاجة المعوزين، الذين ذكرهم القرآن الكريم «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله»[1].

(١) سورة التوبة الآية ٦٠.

ولا تقتصر موارد الدولة في القيام بالمصالح العامة للأمة على الزكاة بل تتجاوز ذلك الى غيرها ومن أهمها:

(أ) الخراج:

وهو ضريبة الأرض التي فتحت صلحا من قبل المسلمين، حيث تبقى بيد أهلها على أن يدفعوا لبيت المال مقدارا من المال والحاصلات الزراعية، فقد نقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل أهل خيبر على نصف ما تنتجه الأرض. قل أو كثر.

ويختلف أجر الأرض إن كانت تسقى عما اذا لم تكن تسقى، أما الأرض التي فتحت عنوة، ولكن الدولة لم تقسمها على الفاتحين، كأرض العراق بل احتفظت بها موردا للدولة تنفق منها على رعاياها فهذا النوع مورد آخر.

(ب) الفيء:

وهو ما أصابه المسلمون من مال من غير حرب أو قتال.

وقد قال الله تعالى: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فَلِله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[1].

وقد كان المسلمون يقسمون انفيء الى خمسة أقسام، ثم يقسم الخمس الأول الى خمسة أقسام، يكون الأول منها للرسول صلى الله عليه وسلم، وما تبقى لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن

---

(١) سورة الحشر الآية ٧.

السبيل، أما أربعة أخماس الفيء المتبقية فكانت تقسم في صدر الإسلام بين الجند لتمويل الحرب بشراء أدواته، حتى دوّن الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين. وحدد مرتبات الجند وأرزاقهم، وهكذا كان الفيء موردا ماليا للدولة.

(جـ) النفقات:

ومن حقوق الإسلام في الأموال الخاصة، وجوب النفقة على الأهل والأقارب والمساكين. وقد سلك الإسلام في هذا مسلكين هما.

١- الحث على الإنفاق، والتشجيع على ذلك مع الوعد بالثواب، والتهديد بالوعيد الشديد للممسكين. بل إنه شن حملة على البخلاء مقبحا فعلهم وظنهم بالله الرزاق الكريم.

٢- الحث على العمل والكسب: فقد حث الإسلام أفراده على العمل والكسب وقبح وشنع السؤال وطلب المال، ولم يكتف بذلك حتى جعل اليد التي تعطي فوق التي تأخذ، حتى لا يستسيغ الناس حياة الكسل والخمول، والعيش عالة على عطاء الغير فيصبحوا جماعة مستهلكة، لا نفع فيها ولا إنتاج لها.

(د) الصدقات:

تقدم ان الإسلام يشجع الموسرين على الإنفاق، ويحبب إليهم ذلك، وفي نفس الوقت يشجع الفقراء على الكسب، ويصرفهم عن

طلب الصدقات، حتى لا يكون هذا الأخذ وسيلة عيش أساسية، بل حالة طارئة، يلجأ إليها الإنسان في ظروف صعبة قاهرة.

والصدقات مفتوحة طوال العمر، بل أخبر الإسلام أن أجرها قد يستمر بعد وفاة صاحبها، إن كانت مما يبقى ويستمر نفعه.

كما أن الإسلام جعلها عامة، من الكلمة الطيبة وشق التمرة الى أكبر شيء، كلها يمكن أن تكون صدقة.

كما شرع الإسلام الوقف: وهو النزول عن ملكية شيء، وجعل منفعته لجهة ما، على شرط أن تكون الجهة مما يتصور استمرارها، وعدم انقطاعها، وقد اندفع المسلمون في هذا الميدان فأقاموا المدارس والمستشفيات، وأوقفوا الأراضي والعقارات، والاواني والحلي، والكتب، ولم يقفوا عند حد الإنسان حتى شمل ذلك الحيوان، فكانت هناك دور (للقطط)، ومراعي للحيوانات لطعامها وعلاجها، حتى كان الوقف في كل بلد إسلامي يشكل مرفقاً كبيرا لو اعتني به ونمى لكان من أكبر المصادر لتمويل كثير من المشروعات النافعة للمجتمع، ولسد الكثير من حاجة الأفراد، ولخفف من أعباء الدولة كثيرا.

رابعا: موقف الإسلام من الربا:

حرم الإسلام الربا، وشدد في ذلك تشديدا واضحا، نظرا لمخالفته للأخلاق الكريمة من جهة، وضرره الإجتماعي والإقتصادي

من جهة ثانية، وقد ذكر الإمام الرازي بعض الحكم في هذا التحريم عد منها[1]:

١ - إنه يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض، لأن من يبيع الدرهم بالدرهمين نقدا أو نسيئة، فيحصل له زيادة درهم من غير عوض، ومال الإنسان متعلق بحاجته وله حرمة عظيمة، قال عليه السلام: (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه)، فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرما.

٢ - إنه يمنع الناس عن الإشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد، نقدا كان أو نسيئة، خف عليه اكتساب وجه المعيشة فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يقضي الى انقطاع المنافع. ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات، (وهذه نظرة سليمة إقتصاديا واجتماعيا).

٣ - إنه يفضي الى انقطاع المعروف بين الناس. لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيقضي ذلك الى انقطاع المواساة والمعروف والاحسان. (وهذه نظرة خلقية جديرة بالأحترام).

---

(١) التفسير الكبير ٧ - ٩٣ طبعة أولى.

٤- ان المقرض غالبا يكون غنيا، والمستقرض يكون فقيرا، فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغني من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالا زائدا وذلك غير جائز برحمة الرحيم. (وهذه نظرة انسانية).

ويمكن أن نقول إنه قد يتصور أن هناك مصلحة معينة في الربا، إلا أن هذه المصلحة أهدرها الله تعالى ولم يعتبرها وما أهدره العليم الخبير فليس من مصلحة البشر مناقضته، كما يمكن أن يقال بأن الشريعة تدعو للعمل والنشاط والمخاطرة، والمرابي يرفض ويأبى المخاطرة، ويريد ربحا مضمونا سواء ذهب المال أم بقي.

وقد يرد على الذهن أن الربا منتشر، وهو قوام حياة كثير من البشر وللرد على هذا يمكن أن نقول بايجاز:

(أ) إن انتشار فكرة ما أو عمل معين لا يعني صحته، ففي كثير من الأحيان تروج أفكار خاطئة، ومعتقدات باطلة، لا يظهر زيفها ولا يبتعد الناس عنها إلا بعد قرون. فعبادة النار والأصنام عاشت قرونا، وكان لها من الأنصار ما لا يعد، ولكن ذلك ليس بدليل على سلامتها، واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان عاش قرونا، وشمل أقطاراً، بل قارات، لكن ذلك لا يجعله حقيقة مقبولة.

(ب) ثمة دول لا تتعامل بالربا وهذا لم يجعلها عاجزة ولا متأخرة، كما أننا نسمع بين الفترة والأخرى أن دولة أقرضت أخرى

ملايين من غير فائدة، وهي تفتخر بذلك. ولكن الذين يرابون لا يحق لهم مثل هذا الفخر.
كما ان الربا يواجه نقدا عنيفا خارج دائرة الإسلام، (فكينز) رئيس مؤسسة النقد الدولي السابق شن على الربا اكبر حملة، واتهمه بأنه مثير للحروب، ومطيل لها، وأنه من أكبر الجرائم، وشايعه على هذا كثير من اقتصاديي العالم.

خامساً: موازنة بين نظرية الإسلام والرأسمالية والإشتراكية في المال:

لعل أهم النظم الإقتصادية المستقلة في العالم والمتميزة هي الإسلام والرأسمالية والإشتراكية، وسوف ندرس الكل موضحين طبيعة كل واحد واتجاهه كل هذا من الناحية الإقتصادية، ولنا عودة لندرس الرأسمالية والإشتراكية فكرةً وفلسفة.

(أ) الرأسمالية:

الرأسمالية كنظام اقتصادي ترتكز على ثلاثة أركان رئيسية هي[1]:
١- الأخذ بمبدأ الملكية الخاصة، وهذه قاعدة المذهب التي لا

(١) اقتصادنا للصدر ٢١٦/١.

يمكن الخروج عليها إلا بحكم ظروف استثنائية فحرية التملك لمختلف الوسائل، سواء كانت آلات أو معادن أو تجارة أو أراضي مضمونة، ويكلف القانون حماية الملكية وصيانتها من كل اعتداء.

٢- فسح المجال أمام الأفراد لاستغلال ملكياتهم، على الوجه الذي يرغبون فيه والسماح بتنمية الثروة بمختلف الوسائل والأساليب، بما في ذلك المقامرة والربا والإحتكار والمنافسة الحرة.

٣- ضمان حرية الاستهلاك، وحرية الاستغلال، فلكلٍ حرية الانفاق من أمواله، كما يشاء ووفق رغباته، وللسلع التي يحب ويرغب، ومن مستلزمات هذه النظرية اختلال التوزيع في الثروة، فتتجمع وسائل الأنتاج لدى طائفة فتصبح أغنى الفئات، وتضع يدها على موارد البلاد كلها، لتستخدمها في سبيل منافعها الذاتية، يقابل ذلك طبقة كبيرة من الفقراء، لا يجدون وسيلة للعيش، إلا أن يكونوا عمالا وأجراء لدي هؤلاء الأغنياء.

ومن طبيعة هذا النظام أن يحدث في الناس ميلا شديدا الى جمع المال وعدم انفاقه إلا فيما يعود بالربح الوفير، والمصالح الكبيرة، وإضافة الى مشكلات ومتاعب تكشف عنها الأيام باستمرار.

(ب) الاشتراكية:

وأركانها هي[1]:

١- محو التفاوت بين الناس غنى وفقرًا، وتصفية ذلك وجعل المجتمع نظريا خالصا من الطبقات.

٢- تأميم مصادر الثروة ووسائل الانتاج واعتبارها ملكا للمجموع.

٣- توزيع الدخل على المواطنين حسب طاقاتهم وعملهم.

والملاحظة: إن الاشتراكية وهي تحاول القضاء على التفاوت بين الأفراد تقضي على الغني والاغنياء، ثم لا تمر فترة حتى ينشأ أغنياء جدد، وطبقة غنية أخرى تختلف عن الأولى، وتحل محلها، وهي الطبقة الحاكمة ومن يلوذ بها، وهذه الطبقة الجديدة أخطر بكثير من سابقتها[2]. لأنها تملك وسائل القوة، من الحكم الى المال بينما الأغنياء لا يملكون في العادة كل هذه القوة.

أما توزيع الدخل حسب الطاقة والعمل، فهذا لا يلبث مدة ثم يعود بالمجتمع كما كان، لأن الناس غير متساوين في طاقاتهم ولا فيما يؤدون من أعمال، فتكون النتيجة فوارق جديدة وطبقية جديدة، هربنا منها أول الامر، فما لبثنا طويلا حتى وقعنا فيها.

---

(١) اقتصادنا للصدر ص ١٩٠.

(٢) الطبقة الجديدة: ميلوفان دجيلاس نائب رئيس جمهورية يوغسلافيا سابقاً.

أما التأميم فإضافة الى أنه يجعل وسائل الإنتاج بيد الدولة، التي تصبح تملك كل شيء، بينما يصبح الفرد عبداً من عبيدها، إضافة لهذا فان نقل الملكية للدولة يميت المبادرات الشخصية بحيث يصبح سائر العاملين مجرد موظفين، لا يهمهم تقدم المصلحة من عدمه، وخسارتها من ربحها، إضافة الى ما تسببه عملية التأميم من هروب لرؤوس الأموال الكبيرة أو اختفائها كليا، مما يسبب شللا اقتصاديا.

(جـ) الإسلام:

أما الإسلام فهو يعترف بالملكية ويحترمها ويصونها، ولكنه لا يمنحها الحرية التي تمنحها لها الرأسمالية... فالإسلام مثلا يحرم الربا ويمنع الإحتكار والمقامرة، وينظم المنافسة، كما يمنع الإسراف والبذخ ويوجب الإعتدال.

وهو من ناحية أخرى يقيد الملكية، ويحدد وسائل الربح الحلال، ويوجب الإنفاق والصدقات، ولا يرضى بتكديس الأموال بأيدٍ قليلة، حتى تصبح دولة بين الأغنياء، ولكنه لا يقر المصادرة، ولا يعترف بها.

وهكذا يتجنب الإسلام إفراط الرأسمالية، وشذوذ الإشتراكية، ويختط منهجا مستقلا، ليس هو بالمنهج الرأسمالي في حريته، ولا الإشتراكي في مصادرته وعنجهيته.

الفصل السادس

الأحوال الشخصية(١)

أولا: الأسرة لبنة المجتمع:

يعتبر الإسلام «الأسرة» حجر الزاوية في بنائه، لذلك فقد شرع كل ما يحفظ وحدتها وتماسكها، كما أبعد عنها كل ما يهدمها أو يؤثر على سلامتها، فقد شرع الإسلام الزواج، وهو الأساس السليم لتكوين الأسرة، وشرع مع التفصيل شروطه وأركانه، كما أوضح واجبات وحقوق كل طرف والتزاماته لأجل أن تسود جو الأسرة المحبة والمودة والسكينة، ومعلوم أن كل مجتمع تماسك أسره فهو مجتمع متين قوي، وعلى العكس فكل مجتمع تسود أسره الشحناء والتناحر، فهو مجتمع متفكك منهار لا محالة.

ومن هنا كانت التشريعات المتعلقة بالأسرة من أكثر الأحكام تفصيلا ودقة واستقصاء، دفعا للنزاع وسوء التفسير.

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون: للدكتور السباعي - المكتبة العربية بحلب، ونظام الأسرة وحل مشكلاتها: للدكتور الصابوني - دار الفكر، والمرأة العربية في ظل الإسلام: عبدالله عفيفي - دار الكتاب العربي. والإسلام والمرأة للخولي، وحقوق المرأة في الإسلام للشيخ محمد بن عرفة.

ثانيا: الزواج سنة من سنن الإسلام:

رغب الإسلام بالزواج ودعا إليه، حتى لقد أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض صحابته ترك الزواج والابتعاد عن النساء، وأوضح عليه السلام أنه وهو رسول الله وقدوة المسلمين، فإنه يتزوج ويتعبد، وأن هذا من سنن الإسلام، فمن رغب عنه وابتعد فقد ابتعد عن سنة من سنن الإسلام، ذلك أن الزواج يجلب السكينة قال تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة».

كما أنه يربي في الإنسان التعاون، بحكم ما يتطلبه قيام الأسرة. ولا يخفى أن بقاء النوع الإنساني رهين بالزواج كما أن عواطف الحب والرحمة والمودة والبذل، كلها يمكن أن تنشأ بعد الزواج في نطاق الأسرة.

وحيث أن الإنسان يملك قوة غريزية ينبغي إشباعها عن طريق الزواج، وإلا فالبديل لذلك هو الزنا والانحراف، وكل مجتمع يشجع الزواج فانه يكافح الزنا، وكل مجتمع يعرقل الزواج فإنه يفسح المجال للزنا وهكذا...

ثالثا: تماسك الأسرة وأثره في كيان المجتمع[1]:

ان الأسرة السليمة هي المكان الطبيعي الذي يتكون فيه

---

(١) مقدمة كتاب المرأة بين الفقه والقانون ص١٢.

الإنسان تكونا طبيعيا سليما، والأسرة هي المتنفس الطبيعي الوحيد للحياة العاطفية والجنسية للمتزوجين وغيرهم، وإن الخلل يأتي للمجتمع من خرق الجدار السليم، ومن نشوء علاقات جنسية خارج الأسرة، سواء حصل ذلك قبل الزواج أم بعده، فإنه يفسد الأسرة ويضعفها، وبالتالي يظهر الأثر في المجتمع، خصوصاً إذا شاعت هذه الظاهرة، يقول الكاتب الانجليزي (جوليان هكسلي) في كتابه الغايات والوسائل: إنه توجد علاقة عكسية بين النشاط الفكري والفني من جهة والإباحية من جهة أخرى، وإنه لا يمكن تلازمها أكثر من جيل، وأن العفة والاحصان شرط ضروري يسبق كل نوع من الحياة الخلقية التي تسمو على الحياة الحيوانية(١).

وأن قيام المجتمع على أساس العفة والاحصان وسلامة الأسرة يقتضي اتخاذ تدابير عملية والقيام بتهذيب خلقي، في المجتمع.

رابعا: قيام الأسرة على المحبة والتراحم:

إن الأسرة هي مظهر تعاون الجنسين، وهي ضرورية للطفل نظراً لضعفه الإنساني، وشدة حاجته للعناية والرعاية. ففي داخل الأسرة يتكون الحب من جانب الأم لزوجها وطفلها ومن جانب الأب لزوجته وطفله.

ومعلوم أن الأمومة صفة أساسية فطرية في الأنثى. وأما

(١) مقدمة كتاب المرأة بين الفقه والقانون ص ١٣.

الرجل فهو عامل الإرتباط مع المجتمع، وربما الصراع معه من أجل العيش والكسب، ومن هنا كانت الأسرة هي البيئة التي يجد فيها أفرادها السكينة والطمأنينة والود والمحبة، ومتى فقدت الأسرة ذلك فقد انفرطت وانحلت، وقد يصبح من المصلحة التفريق بين أفرادها، اذ لا معنى لوجودها خالية من الحب والعطف والمودة.

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نساء قريش بأنهن خير النساء فقال (خير نساء ركبن الأبل، صالح نساء قريش: أحناه على ولد في صغره، وادعاه على زوج في ذات يده).

خامسا: توزيع المسؤولية على الأعضاء:

إن أي مؤسسة إنسانية تتكون من جماعة لا بد من أن تتوزع المسؤوليات بينها، حتى لا يحملها طرف ويبقي غيره متفرجا لا مسؤولية له.

لذا سندرس مسؤولية كل طرف في الأسرة.

واجبات الزوج:

فالزوج من واجبه أن يقدم ما يحتاج إليه أفراد أسرته من النفقة الكافية المناسبة، بقدر استطاعته ومقدرته، قال تعالى: «لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا»[١]،

---

(١) سورة الطلاق الآية ٧.

والأولى أن يكون في نفقته كرم وتسامح، لا يصلان الى حد الإسراف والتبذير، كما أن من واجب الزوج أن يشرف على حسن سمعة أسرته واخلاق أفرادها، وقيامهم بما أوجبه الله عليهم من الفرائض لا سيما الصلاة ومدى تقيدهم بأدب الشريعة السمحاء، بما يتفق مع الحكمة والاعتدال، دون قسوة ولا اهمال، عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم (... والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته) ويقول الله تعالى: «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها»[١].

واجبات الزوجة:

من واجبات الزوجة أن تعين زوجها في تربية أولادها تربية صالحة متفقة مع أوامر الدين، والعمل والاشراف على ما يحتاج اليه المنزل من نظافة وعناية مع حسن التصرف والاقتصاد وعدم التبذير والإسراف، وأن تتقيد بقيود الشرع من الستر والعفة، وألا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها، وألا تدخل الى بيتها من لا يبيحه الدين أو لا يرضى به الزوج أيا كان.

واجبات الأولاد:

ومن واجب الأولاد نحو أبويهم طاعتهما واحترامهما وقبول نصيحتهما وعدم الخروج على أمرهما، ما دام متفقا مع الشرع وحسن الأخلاق، وأن يقوما بإعانتهما وتحقيق ما يحتاجون إليه لا

---

(١) سورة طه الآية ١٣٢.

سيا إذا كبرا وعجزا عن العمل، وفاء بحقها وجزاء لإحسانها وأبلغ وصية فيها قوله تعالى: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا»[1].

حقوق أفراد الأسرة:

إن ما ذكرناه من واجبات كل فرد من أفراد الأسرة هي حقوق الآخرين، لا يجوز له أن يقصر فيها، ولا يحل لهم أن يطالبوا ما هو فوقها.

أثر القيام بالواجبات والاكتفاء بالحقوق:

كل ذلك إذا قام به أفراد الأسرة دون تقصير في الواجبات ولا طلب للزيادة في الحقوق، مع مراعاة التسامح وغض النظر عن بعض الهفوات التي لا يخلو منها أنسان، فإن الأسرة تكون سعيدة النفس، طيبة العيش، هنيئة البال، يسودها الحب والتواد والتراحم، والسعادة لبنة صالحة في بناء المجتمع، ينشأ فيها الرجال العاملون المخلصون والنساء الصالحات الطيبات والعفيفات الطاهرات، أما إذا قصر كل بواجبه أو لم يقم به، أو طالب كل بأكثر من حقه، ولم تبن صلات أفراد الأسرة على المحبة والصبر والإحتمال والتعاون على شظف الحياة، وعاش كل منهم على هواه،

---

(١) سورة الاسراء الآيات ٢٣ - ٢٤.

فإنها تكون أسرة واهية متفككة الأوصال، لا ترفرف عليها أعلام المسرة والسعادة، بعيدة عن أوامر الله وشرعه الحكيم، ولا خير في أسرة تربي أفرادها على الإهمال أو في بيئة قلقة صاخبة فاسدة الأخلاق.

سادسا: مكانة المرأة ووظيفتها في المجتمع في نظر الإسلام:

الرجل والمرأة شريكان:

الحياة الدنيا بما فيها من خير وشر، ويسر وعسر، وحزن وراحة، وعناء وموت وحياة، كلها وغيرها ليست خاصة بالرجال دون النساء، ولا النساء دون الرجال، بل هي مشتركة بينهما، والمرأة شريكة الرجل، في حياتهما يتعاونان على جلب المصالح ودرء المفاسد.

هذه هي النظرة الصادقة، والحقيقة الواقعة، التي لا يختلف فيها اثنان.

المشاركة لا تقتضي المساواة:

لا يترتب على المشاركة أن يكون كل واحد من الشركاء مماثلا للآخرين، فيما يترتب عليهم من واجبات وما ينالونه من حقوق، وما يتحملونه من تبعات. ذلك لان الشريكين قد يكونان مختلفين في القوة والإحتمال والإستعداد، فكان من العدل والإنصاف، أن تكون حقوق كل واحد وواجباته، متكافئة مع حاجته وقدرته واحتماله وجهوده، متناسبة مع ما هُيِّئ له من الوظائف والأعمال.

وهذا ما راعاه الإسلام ودعا إليه، فأعطى لكل حقه الكامل دون انتقاص، وكلف كلا بواجبات واعمال تتناسب مع استعداده وما أودع الله فيه من القوة، وما أعده له من الأعمال.

توزيع الواجبات:

طالما أن الحياة تحتاج الى سعي وكد وعمل خارج المنزل، للانفاق على الأهل والعيال، وتأمين ما يحتاجون إليه من مسكن وكساء وغذاء، ودواء وتعليم، وغيرها من النفقات، ولما كان الرجل هو الأقوى والأقدر على تحقيق هذا الجانب الهام، فقد أسنده الشرع إليه وطالبه به، وأوجبه عليه، ولا تكلف المرأة بالعمل، ولا تجبر عليه، كما أن الصغار لا سبيل لهم الى ذلك، فواجب الرجل أن يكد ويعمل وينفق، على أهله وزوجته وأولاده، وأبويه وأخوته، النفقة الكافية المعتدلة المناسبة لما عليه أمثاله، ولما يرد عليه من دخل وما يمتلكه من المال. قال تعالى: «لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها»[1].

هذا ما يختص به الرجل، أما المرأة فإن الأسرة بحاجة الى من يدير أمرها، ويحسن التصرف بأمورها، ويقوم بما يحتاج إليه أفرادها، ضمن المنزل، لا سيما الصغار، من تجهيز الطعام، وتنظيف المنزل وإعانة الأولاد في نظافتهم وطهارتهم، وارتداء ثيابهم، ولما

(١) سورة الطلاق الآية ٧.

كانت المرأة هي الأنسب والأولى بالقيام بهذه الشئون التي تقل لزوما وفائدة عن الأعمال الأخرى، فقد أسند الشرع والعرف ذلك إليها وأمرها أن تقوم به على قدر استطاعتها، فلا هي مطالبة حتما بما هو من خصائص الرجل، ولا هو مطالب حتما بما هو من خصائص المرأة.

وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»[1].

وقول النبي عليه الصلاة والسلام (الرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في مال زوجها وهي مسئولة عن رعيتها).

جهات المساواة:

١- متع الحياة ومسراتها المباحة:

أما متع الحياة الدنيا ومسراتها وطيباتها الحلال فهي مشتركة بين الرجل والمرأة، وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام- وهو قدوة المؤمنين- (يباسط أهله ويمازحهن ويعامل زوجاته باللطف والبشر والاحسان ولا يحملهن فوق طاقتهن ويعاونهن في مهنتهن وإن كن لسن بحاجة الى المعونة، ولكن يفعل ذلك ليشعرهن وتطييبا لقلوبهن، وليكون في ذلك أسوة حسنة لسائر الرجال).

كما كان عليه السلام يصحب معه بعض نسائه في سفره، يفعل

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨.

ذلك بالقرعة، حتى لا تتأثر نفوسهن، وينكسر خاطرهن، كما كان يصحبهن في نزهاته، في بعض الأحيان، وقد ثبت أنه سابق عائشة رضي الله عنها مرتين، وهذا من أكبر دلالة على مدى حسن معاملته صلى الله عليه وسلم لنسائه، ونزوله عند رغبتهن، وإدخال السرور الى قلوبهن.

٢- أركان الإيمان والإسلام:

كما إن الدين الإسلامي ساوى بين المرأة والرجل فيما يجب عليها من العقائد الصحيحة، عن قناعة وتسليم، فالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر لا يختص بالرجل، بل هو والمرأة على حد سواء، وكذلك القول في أركان الإسلام: وهي النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، كل ذلك مشترك بين المرأة والرجل. فعدد الصلوات ونسب الزكاة وشهر الصيام وحج البيت، لا يزيد الرجل في أي واحد منها على المرأة، بل كل واحد منها واجب عين على الرجال والنساء على حد سواء، وإن لكل واحد منهما من الثواب على فعل ذلك مثل ما للآخر، وكذلك العقاب على فعل المحرمات.

٣- المحرمات والمباحات:

«قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من

الرزق »[1]. الزينة لم يحرمها الله بل أباحها لكل من الرجال والنساء، بل إن جانب المرأة أظهر بالنسبة للزينة والثياب، حيث أبيح لها الذهب والحرير دون الرجال.

وأما ما حرمه الله كالخمر والخنزير والميتة والقمار والغش والكذب وسائر المحرمات، فهو جميعه حرام على الرجال والنساء ولا حق لواحد منهما أن يرتكب شيئا من الحرام رجلا كان أو امرأة.

جهة التكريم:

ما علمنا أن الشريعة الإسلامية نظرت الى المرأة نظرة سوء وازدراء، ولا أنها أجازت عقوبتها من غير ذنب، ولا اتهامها من غير يقين، ويكفي الإسلام تشريفا للمرأة أن مَنْ مسها بكلمة تجرح عفافها كلف من قبل الدولة أن يثبت ذلك بأربعة شهود، رأوا رأي العين، فإن لم يفعل، فيجلد ثمانين جلدة، وترد شهادته ما دام حيا، وكذا يحكم عليه بالفسق، ما لم يرجع الى الحق والإيمان، ويتوب الى الله، ويعمل صالحا يرضاه، وهذا لا تجده في أية شريعة أخرى، ولا عند أية أمة من الامم السابقة واللاحقة، التي تدعي تكريم المرأة والإحسان إليها.

وأرى أن أي عمل أو أي أمر كلف به الرجل دون المرأة فهو

---

(١) سورة الاعراف الآية ٣٢.

من باب التشريف لها والتكرم لا من باب الحرمان والامتهان، وذلك كوجوب مرافقة رجل من محارمها في سفرها، وعدم إيجاب الجهاد في ميادين القتال عليها، وعدم وجوب الجمعة والجماعة عليها، كما سيذكر ذلك بالتفصيل.

المرأة والجهاد:

الجهاد قسمان جهاد بالمال، والمرأة والرجل في وجوبه سيان، وجهاد بالنفس وهو قسمان: أحدهما في الجبهات وفي ميادين القتال على الحدود وفي الثغور، وهذا يجب على القادرين من الرجال، أما النساء فإنهن لا يكلفن به على وجه الوجوب، ولهن أن يحضرنه متبرعات ومن تلقاء أنفسهن، من غير تكليف وإذا وافق قائد الجيش على خروجهن ورأى أن ذلك في مصلحة المقاتلين، فلا مانع، وحينئذ تضمد الجرحى وتحضر الطعام وتعالج المرضى، وربما حملت السلاح وقاتلت كما يقاتل الرجال، اذا اعتدى العدو عليها، كما حصل من بعض النساء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعهد الصحابة والسلف الصالح أيام كان جهادا خالصا في سبيل الله.

والثاني: القتال داخل البلدة وبين البيوت، إذا دخل العدو الغاشم بلاد الإسلام، وهنا يجب على المرأة أن تدافع وتقاتل بمقدار استطاعتها، دون تسليم أو تقاعس أو إهمال، كما يجب على الرجل.

المرأة والتعليم:[1]

أما تعليم المرأة فانه لازم وضروري، بحسب ما تحتاج إليه، وقد جاء في الحديث الشريف: أن طلب العلم واجب على كل مسلم: أي ذكر أو أنثى وطالما أن المرأة مطالبة بالفروض والواجبات والأركان، وطالما هي مطالبة بالدفاع المدني وما يحتاج إليه من تضميد وتمريض، وحسن توجيه بتعليم أولادها وتهذيبهم، كما هي مكلفة بالعناية بالمنزل والأسرة، وكل ذلك يحتاج الى معرفة وعلم، ولا يحسنه غير المتعلمات، لذلك كان التعليم مشروعا بالنسبة إليها وهي مطالبة به لانه سبيل الى القيام بواجباتها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أما التخصص بالعلوم كالطب واللغات والتاريخ والرياضيات فهي أيضا مطالبة به إذا أرادت أن تقوم بعلاج النساء وتعليمهن، وهي خير من الرجال في هذا المجال.

المرأة والعمل:[1]

بقي أمر وهو ما يتمسك به عادة (أنصار المرأة) وهو السماح لها بالعمل خارج المنزل، وتولي المناصب والقضاء، فما هو موقف الإسلام من ذلك؟

---

(١) الإسلام والمرأة للخولى ص ٢٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٢١

إن موقف الإسلام واضح ، وهو عدم إجبارها على العمل قسرا وهي كارهة ، فليس للأب ولا للأخ ولا للزوج ولا لغيرهم أن يمتنعوا عن الإنفاق عليها مدعين بأن باستطاعتها أن تعمل وتستغني عنهم ، فالمرأة غير مكلفة بذلك ، لأنه خلاف طبيعتها ، وخلاف ما خلقت من أجله .

إن المنصف يعترف بأن هذا تكريم واحترام للمرأة ، حيث أنّها لا تجبر على العمل وهي كارهة ، ولا تلزم بالتبذل والخروج من المنزل ، لأجل أن تقوم بالأعمال التي لا تتفق مع طبيعتها ، بقي ما اذا هي رغبت بالعمل دون إكراه ، ورضيت به من تلقاء نفسها ، فهل يسمح لها بذلك أم لا ؟ .

الجواب: إنها لا تمنع من العمل الذي ترغبه بشرط أن يكون متفقا مع طبيعتها ، بعيدا عن الشبهات والاختلاط ، ليس فيه فتنة لها ولا لغيرها ، وتعلقت به مصلحة لها والصالح العام ، كالخياطة وتمريض النساء وتطبيبهن ، وتعليم البنات ونحو ذلك من الأعمال ، التي تليق بالمرأة ولا تجرح كرامتها ولا تمس عفافها ، والقاعدة العامة إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، جاء في الحديث الشريف: (دع ما يريبك الى ما لا يريبك. وإن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه).

هذا موقف الإسلام من عمل المرأة صريح واضح ، لا تجبر إلا لضرورة ولا تُمنع إلا لمانع .

المرأة والحجاب:

أما حجاب المرأة وعدم اختلاطها بالرجال إلا جانب عنها والتكشف أمامهم، فهذا واجب، وهو فضيلة لها، وتكريم لقدرها، في الفكر الصائب، والعرف الصحيح، وآية فضيلة صارت إليها المرأة في البلاد الأوروبية ومن سار في ركابها من السفور الفاضح، والتكشف الفاتن، والاختلاط المشين؟؟!

لو فكر العاقل لما سمح لنفسه ولا لأهله، ولا لأحد من النساء بذلك التردي والإنحطاط، ولكن غلبت على الناس الشهوة، وفتنوا بالتقليد، دون أن يكون لهم رأي أو نظر، فيما هم عليه، وما وصلوا إليه من الخزي والعار.

وإن الإحصاءات التي أجريت في أمريكا وأوروبا للفتيات، يندي لها جبين الأخلاق، ولا يرضي بنتائجها شرف ولا ضمير.

ولم يكشف دعاة السفور بما وصلوا إليه، ولكنهن تهجموا على العفيفات المصونات المحصنات، فاتهموهن بالتأخر والجمود، والتخلف عن ركب الحضارة في مضمار الحياة، وهكذا أصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا، وفتن بدعوتهم الخادعة كثير من الرجال والنساء، وأخذوا يرددون مزاعمهم بتحرير المرأة. وإخراجها مما هي فيه من الشرف والفضيلة والعفاف.

لا منافاة بين العلم والعمل وبين الحجاب:

وليس في حجاب المرأة ما يمنعها من القيام بما يتعلق بها من

الواجبات، وما يسمح لها من الأعمال، ولا يحول بينها وبين اكتساب المعارف والعلوم بل إنها تستطيع أن تقوم بكل ذلك مع المحافظة على حجابها وتجنبها الاختلاط المشين، وكثيراً ما نرى من المتحجبات طالبات في الجامعات، قد ارتدين الثوب الساتر وبعدن عن مخاطبة الرجال، وسرن في دراستهن خير سير، حتى إنهن أحرزن قصب السبق في مضمار الإمتحان، وكن في موضع تقدير واحترام الجميع، والشأن في الأمة الإسلامية أن تهيىء للفتيات التعليم الخاص بهن، الذي يلائم وظائفهن الى أعلى مستوى، وكذلك القول في القائمات بالوظائف والأعمال التي تتفق مع طبيعتهن واستعدادهن، ولم يكن الحجاب حائلا دون النجاح وأداء تلك الأعمال على أحسن حال.

المرأة والميراث:

أما الميراث فقد كان العرب وكثير غيرهم من الأمم الأخرى يحرمون المرأة من أي حق في ميراث أقاربها، مهما كانت درجة قرابتهم لها، فلما جاء الإسلام بشريعته العادلة، جعل المرأة شريكة الرجل في الميراث كثيرة وقليلة قال تعالى: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا»[1].

وفي آية أخرى يقول: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ

(١) سورة النساء الآية ٧.

الانثيين »[1]، وليس هذا التفاوت بين الأولاد والبنات في نصيب كل منهما أي إجحاف ولا ظلم، ذلك لأن ما يقع على عاتق الرجال من الواجبات المالية، وما يلزمهم من النفقات على زوجاتهم وعيالهم، أكثر بكثير مما يتعلق بالنساء، فكان من العدل أن يأخذ من الميراث أكثر مما تأخذه المرأة، لا سيما أن المرأة لا تعدم لدى الحاجة من ينفق عليها من الرجال.

المرأة عند غير المسلمين:

كل ذلك أعطاه الاسلام لها، وأكرمها ورفع من قدرها، واعتبر النساء شقائق الرجال، بينما كانت مهملة الجانب مهضومة الحق، مقصوصة الجناح، تورث ولا ترث، وتؤمر ولا تأمر، ويختار لها ولا تختار، وإنها خلقت لخدمة الرجال.

وكان من العرب من يبيح لنفسه أن يئد ابنته وهي حية، تخلصا مما قد يلحقه بسببها من الفقر ومن العار، ولم يكن يرى مانعا من ذلك في قومه، ولا يمسه أحد ولا بكلمة نابية، ولا يعتبرونه ارتكب جريمة أو أتى بشيء منكر مستهجن.

بل إن المجتمعات الأوروبية كانت حتى القرون الوسطى، تشك في طبيعتها، وأصل خلقتها، وهل هي من نسل الإنسان أم نسل الشيطان، وهل تكلف بالعبادات ودخول الكنيسة أم لا؟.

---

(١) سورة النساء الآية ١١.

وهل تدخل الجنان أم هي محرومة ليس لها نصيب، كل ذلك كان محل جدل ونقاش، بين أصحاب الفكر والمعرفة عندهم والدين.

أما في الإسلام:

فقد اعتبر جانبها، وأعطاها حقوقا، وترك لها الحرية في مالها، واختيار زوجها، وجعل لها ميراثها، ولها أن تأمر وتنهى في كل الأمور، وأن تعترض على ما لا يتفق مع الشرع والمصلحة، ولو مع ذوي السلطان، وذم الحالة التي تعتري الأباء إذا بشر أحدهم بالأنثى، ونهى عن وأدهن، واعتبر ذلك من الجرائم الكبرى، قال تعالى: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون»[1].

وقال تعالى: «وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت»[2]، وقال «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إنّ قتلهم كان خطئا كبيراً»[3].

والمرأة في نظر الإسلام والواقع، إنسان مثل الرجل لا فرق

(١) سورة النحل الآية ٥٨- ٥٩.
(٢) سورة التكوير الآية ٨- ٩.
(٣) سورة الاسراء الآية ٣١.

بينهما من حيث الخلقة والأصل، قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى»[١].

وقال تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء»[٢]، كما أن المرأة مكلفة بالعبادات كالرجال.

وهي تدخل الجنة إذا حسن عملها والنار اذا ساء كالرجال، تحاسب كما يحاسبون وتثاب أو تعاقب كما يثابون ويعاقبون وغير ذلك من الحقوق التي لم ترها إلا في الإسلام.

سابعا: تعدد الزوجات:

وهذا مطعن آخر من المطاعن التي يوجهها أعداء الإسلام إليه والجاهلون بحكمه أو الذين تربوا على بغضه واتهام أحكامه، أو يرددها الببغاوات من المقلدين للأجانب بما يرغبون ويقولون.

فتعدد الزوجات ليس أمراً غريبا إنفرد به الإسلام، دون سواه من الشرائع، واختص به المسلمون دون سواهم من الأمم والشعوب.

وهو في الإسلام مباح لا واجب، والمباح متروك أمره لاختيار العاقل ومقدار حاجته ومصلحته في الترك أو الاستعمال.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) سورة النساء الآية ١.

التعدد لم ينفرد به الإسلام:[1]

١- الإسلام لم يكن أول من شرع تعدد الزوجات بل كان موجودا في الأمم القديمة كلها: عند الاثينين والصين والبابليين والأشوريين والمصريين، ولم يكن له عند أكثر هذه الأمم حد محدود، وقد سمحت شريعة (لكيلي) الصينية بتعدد الزوجات الى مئة وثلاثين امرأة.

٢- والديانة اليهودية كانت تبيح التعدد بدون حد، وأنبياء التوراة جميعا بلا استثناء كانت لهم زوجات، وقد جاء في التوراة (الموجودة الآن) أن نبي الله سليمان كان له سبعمائة امرأة من الحرائر وثلاثمائة من الإماء.

٣- في الديانة المسيحية: ولم يرد في المسيحية نص صريح يمنع التعدد، وإنما ورد فيه على سبيل الموعظة، أن الله خلق لكل رجل زوجة، وهذا لا يفيد إلا الترغيب بأن يقتصر الرجل في الأحوال العادية على زوجة واحدة.

وليس في الإناجيل كلها نص صريح يدل على منع التعدد، بل جاء في بعض رسائل بولس ما يفيد أن التعدد جائز، فقد قال (يلزم أن يكون الأسقف زوجا لزوجة واحدة) ففي إلزام الأسقف وحده بذلك دليل على جواز التعدد لغيره.

---

(١) ينظر كتاب المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله صفحة ٧١ وما بعدها طبعة ثانية. والاسلام والمرأة للخولى ص ٨١

وقد ثبت تاريخيا أن بين النصارى الأوائل من كانوا يتزوجون أكثر من واحدة، وفي آباء الكنيسة الأقدمين من كان لهم كثير من الزوجات، وقد كان في أقدم عصور المسيحية إباحة لتعدد الزوجات في أحوال استثنائية وأمكنة مخصوصة.

قال (وستر مارك) العالم الثقة في تاريخ الزواج: (أن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة).[1]

ويقول أيضاً في كتابة المذكور: (إن يار ماسدت) ملك أرلندة كان له زوجتان وسريتان، وكان لشارلمان زوجتان، وكثير من السراري، كما يظهر من بعض قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولا بين رجال الدين أنفسهم.

وقال جرجي زيدان: (فالنصرانية ليس فيها نص صريح يمنع اتباعها من التزوج بامرأتين فأكثر، ولو شاؤوا لكان تعدد الزوجات جائزاً عندهم، ولكن رؤساءها القدماء وجدوا الإكتفاء بزوجة واحدة أقرب لحفظ نظام العائلة واتحادها - وكان ذلك شائعا في الدولة الرومانية فلم يعجزهم تأويل آيات الزواج حتى صار الزواج بغير امرأة حراما كما هو مشهور).

ولو دقق الباحث لوجد أن كثيراً من النصوص التي قالها المفكرون من الأوروبيين تنادي بإباحة تعدد الزوجات.

---

(١) العقاد حقائق الإسلام ص ١٧٧.

قال الفيلسوف الألماني الشهير (شوبنهور) في رسالته (كلمة عن النساء).

إن قوانين الزواج في أوروبا فاسدة المبنى، بمساواتها المرأة بالرجل، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة، فأفقدتنا نصف حقوقنا، وضاعفت علينا واجباتنا، على أنها ما دامت أباحت للمرأة مثل الرجال، كان من اللازم أن تمنحها أيضاً عقلا مثل عقله).

إلى أن يقول: (ولا تعدم إمـرأة من الأمم التي تجيز تعدد الزوجات زوجا يتكفل بشئونها، والمتزوجات عندنا نفر قليل، وغيرهن لا يحصين عددا، تراهن بغير كفيل، بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت، وهي هائمة متحسرة، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى، يتجشمن الصعاب، ويتحملن شاق الأعمال، وربما ابتذلن فيعشن متلبسات بالخزي والعار، ففي مدينة (كلندون) وحدها ثمانون ألف بنت عمومية (هذا على عهد شونبهور) سفك دم شرفهن على مذبحة الزواج، ضحية الإقتصار على زوجة، ونتيجة تعنت السيدة الأوروبية، وما تدعيه لنفسها من الأباطيل).

ثم قال: أما آن لنا أن نعد بعد ذلك تعدد الزوجات حقيقة لنوع النساء بأسره)[1].

---

(١) الإسلام وروح المدنية للغلاييني ص ٢٢٤.

وتحدث الأستاذ (غوستاف لوبون)[1] في حضارة العرب عن تعدد الزوجات عند المسلمين وهو الذي عاش بنفسه سنوات طويلة في بلاد الشرق والإسلام فقال (لا نذكر نظاما اجتماعياً أنحي الأوروبيون عليه باللائمة، كمبدأ تعدد الزوجات، كما أننا لا نذكر نظاماً أخطأ الأوروبيون في إدراكه كذلك المبدأ).

ثم قال: (ولا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الغربيين، مع أنني أبصر بالعكس ما يجعله أسنى منه).

وقال دستر مارك: إن مسألة تعدد الزوجات لم يفرغ منها بعد تحريمه في القوانين الغربية، وقد يتجدد النظر في هذه المسأة كرة أخرى، كلما تحرجت أحوال المجتمع الحديث، فيما يتعلق بمشكلات الأسرة.

ضرورة التعدد

الضرورات هنا تنقسم الى اجتماعية وشخصية:

الضرورات الإجتماعية:

الضرورات الإجتماعية التي تلجىء الى التعدد كثيرة، نذكر منها حالتين لا ينكر أحد وقوعها:

---

(١) حضارة العرب ص ٣٩٧

١ - الحالة الاولى:

عند زيادة النساء على الرجال في الأحوال العادية، كما هو الشأن في بعض البلدان كشمال أوروبا، فان عدد النساء فيها في الأحوال العادية يفوق عدد الرجال بكثير، فاذا تزوج كل رجل بواحدة فقط فماذا تفعل الباقيات؟

٢ - عند قلة الرجال عن النساء، نتيجة الحروب الطاحنة، وقد دخلت أوروبا حربين عالميتين خلال ربع قرن، فنى فيهما ملايين الشباب، وأصبحت جماهير من النساء ما بين فتيات وما بين متزوجات قد فقدن عائلهن، وليس أمامهن (ولو وجدن عملا) إلا أن يتعرفن على المتزوجين الذين بقوا أحياء، فكانت النتيجة أن قمن باغرائهم على خيانة زوجاتهم، وانتزاعهم من أحضانهن، وقد وجدت الزوجات في هذه الأحوال من القلق وتجرع الهجر والحرمان ما يفوق مرارة انضمام زوجة شرعية أخرى، إلى كل واحدة منهن، وقامت في بعض بلاد أوروبا لا سيما في ألمانيا، جمعيات نسائية تطالب بتعدد الزوجات.

الضرورات الشخصية:

وهناك حالات كثيرة تلجىء المتزوج الى التعدد، نذكر منها على سبيل المثال:

أن تكون زوجته عقيما وهو مصر على وجود ذرية له، تخلفه

وترث أملاكه، ولا حرج عليه في ذلك، فحب الأولاد غريزة في النفس الإنسانية، ومثل هذا ليس أمامه إلا الصبر أو أن يطلق زوجته، ليتزوج مكانها زوجة ولودا، أو أن يتزوج أخرى عليها. أما الحل الأول وهو الصبر فالمفروض أنه لا يستطيع صبراً، وأما الحلان الأخيران فلا شك أن الزواج عليها أكرم بأخلاق الرجال ومروءتهم من تطليقها، وهو في مصلحة الزوجة العاقر نفسها، وخير لها من التشرد وحرمان الزوجية، التي تضمن لها كرامتها ونفقتها ومساواتها بالأخرى.

٢- أن تصاب المرأة بمرض مزمن أو معد أو منفر، بحيث لا يستطيع الزوج أن يعاشرها معاشرة الزوجية، ولا يستطيع صبرا عن النساء، فما هو الحل الأصلح؟ أيطلقها وهي مريضة عانية ليتزوج غيرها؟ أم يستبقيها زوجة، لها نفقتها وكرامتها وعاداتها ومساواتها مع زوجة أخرى لها مثل ما لها من الحقوق والإكرام؟ أم يتخذ خليلة- كما هو الحال في أوروبا- تسلبه ماله وقلبه ثم تتركه لرجل سواه.

التعدد نظام أخلاقي:

إن نظام التعدد وبخاصة في الإسلام- نظام أخلاقي إنساني، أما إنه أخلاقي فلأنه لا يسمح للرجل أن يتصل بأية امرأة يشاء، وفي أي وقت يشاء بل لا بد لذلك من عقد وشهود ومهر وحقوق

وواجبات. وأما إنه إنساني فلأنه يخفف الرجل به من أعباء المجتمع بإيواء أكثر من امرأة الى منزله وعهدته، والتكفل بنفقاتها وحاجاتها، ونقلها الى مصاف الزوجات المصونات المحصنات، ولما يلزم به من إلحاق نسب أولادها والقيام بنفقاتهم وتعليمهم وارشادهم الى أقوم طريق، ويقدم بذلك للمجتمع ثمرة من ثمار الحب الشريف الكريم، يعتز هو بهم وتعتز أمته في المستقبل بهم، ولولا الزواج لفقدت كل هذه المزايا، وأصبح الأولاد عالة ثقيلة على المجتمع، وعارا وخزيا على ذلك الرجل الآثم البغيض.

تعدد الغربيين لا أخلاقي ولا إنساني:

وأين هذا من التعدد الواقع فعلا في حياة الغربيين؟ حتى تحداهم أحد كتابهم، أن يكون أحدهم وهو على فراش الموت، يدلي باعترافاته للكاهن، تحداهم أن يكون فيهم واحد لا يعترف للكاهن بأنه اتصل بامرأة غير امرأته، ولو مرة واحدة في حياته.

إن هذا التعدد عند الغربيين واقع من غير قانون. بل واقع تحت سمع القانون وبصره، وإنه لا يقع باسم الزوجات ولكنه باسم الصديقات والخليلات.

إنه ليس مقتصراً على أربع فحسب. بل الى مالا نهاية له من العدد، إنه لا يقع علنا تفرح به الأسرة ولكن لا يعرفه أحد سواه.

إنه لا يلزم صاحبه بأية مسئولية نحو اللاتي يتصل بهن. بل

حسبه أن يلوث شرفهن ثم يتركهن للخزي والعار والفاقة، وتحمل آلام الحمل والولادة غير المشروعة.

إنه لا يلزم صاحبه بالاعتراف بما ينتج عن هذا الاتصال من أولاد، بل يعتبرون غير شرعيين، يحملون على جباههم خزي السفاح ما عاشوا.

إنه تعدد تبعث عليه الشهوة والأنانية، ويفر من تحمل كل مسئولية. فأي النظامين ألصق بالأخلاق وأكبح للشهوة، وأكرم للمرأة، وأدل على الرقي، وأبر بالانسانية؟.

٢- التعدد مباح وليس واجبا:

الزواج بواحدة هو الأصل، ولا ينبغي للرجل في الحالات العادية أن يتعداه، ولا نجد في القرآن الكريم آية واحدة تحمل الرجل أو ترغبه بالزواج بأكثر من واحدة، وإنما نجد أن الآية التي أباحت التعدد تشترط على الرجل، أن أقدم عليه، أن يعدل بين الزوجتين، فان خاف على نفسه شططا، وكان لا يأمن على نفسه أن يعدل بينهما، فليس له ذلك، وإنما عليه أن يكتفي بالواحدة، ويحرم عليه ما زاد قال تعالى: «فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة»[١].

كما أن هناك شروطاً أخرى، على من أراد الزواج بواحدة،

---

(١) سورة النساء الآية ٣.

وهي القدرة على النفقة الكافية المناسبة، فإن كان عاجزاً فليس له أن يقدم على الزواج بواحدة، فكيف بأكثر؟

أما المرأة فلا تكره على قبول التزوج برجل متزوج، بل إن الأمر متروك لرأيها واختيارها، فإن هي رأت زواجها به أفضل مما هي عليه، من العنس والظلم أو الضياع، أو استَرُ لها وأعف، وأبعد عن الفتنة والريبة، فلتقدم ولتقبل إن شاءت، وإلا فلها مطلق الخيار، وليس لأحد أن يجبرها على قبوله حتى أقرب الناس إليها.

فالمسألة مسألة إباحة واختيار، وموازنة بين المصلحتين، وكل من الرجل والمرأة لا ينبغي أن يقدما عليه، إلا إذا ترجحت لديهما المصلحة وكان خيرا لهما من سواه.

والإسلام نظام متكامل، فيه حل بكل ما يحدث من المشكلات والاحتياج، ومثل ذلك كمثل الصيدلية المليئة بكل دواء، ولا يأخذ العاقل من الأدوية إلا ما نصحه الطبيب باستعماله، وكان هو بحاجة إليه، وكذلك الزواج بأكثر من واحدة وقبول المرأة لهذا الزواج.

شروط إباحة التعدد في الإسلام:

١- أن لا يزيد على أربع زوجات، أخذاً من قول الله تعالى: «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من

النساء مثنى وثلاث ورباع)[1]، وعلى ما هو معروف في السنة وعمل الصحابة الكرام، وعلى ذلك جمهور المجتهدين في مختلف العصور.

٢- العدل بين الزوجات، بالنفقة والمعاشرة، فمن لم يتأكد من تحقيقه لتلك العدالة، فلا يجوز له الإقدام عليه، أخذاً من قوله تعالى: «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة»[2].

غير أنه لو تزوج كان العقد صحيحاً، ولكنه يكون آثما.

والمقصود بالعدل المشروط، هو العدل الظاهر، أي بالنفقة والمعاملة والمعاشرة، أما العدل في المحبة القلبية، فهو أمر لا يملكه الرجل، ولكن ينبغي ألا يحمله على تفضيل من يحبها على سواها، وهذا هو المراد بقوله تعالى: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»[3].

٣- القدرة على الإنفاق على الزوجة الثانية بالإضافة إلى الزوجة الأولى وأولادها، لأن النفقة واجبة عليه، فإن كان عاجزاً عن النفقة على واحدة، لا يحل له ذلك، وكذلك الإثنتين من باب أولى.

وما تراه الآن من بعض المتزوجين باكثر من واحدة، ومن

---

(١) سورة النساء الآية ٣.
(٢) سورة النساء الآية ٣.
(٣) سورة النساء الآية ١٢٩.

هجرانهم للأولى، وبقائهم على الثانية فأمر مخالف للشرع، ولا يرضى به الدين، ولا يؤخذ ذلك ذريعة للطعن بالتشريع الإسلامي، وما جاء به من نظام، وكذلك ما نراه من إقدام بعض الفقراء على تعدد الزوجات، أمر لا يرضي به الشرع ولا يقره العقلاء، فالواجب على الناس أن يتقيدوا بأحكام الشريعة، وأن يعاملوا زوجاتهم بالعدل والإحسان، وأن يقوموا بواجب النفقة على كل منهما دون تقصير ولا إهمال.

ثامنا: زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم:

بقي القول الذي قد يخطر على بال بعض الناس، وهو إنه إذا كان الزواج قد حدد بأربع على الأكثر، فكيف جاز لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قدوة المسلمين وقائدهم، أن يتزوج بأكثر من أربع نساء ويستمر على ذلك؟.

فالجواب: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بالسيدة خديجة بنت خويلد قبل رسالته، وكان له من السن خمس وعشرون سنة، ولها أربعون، وظل معها وحدها حتى توفيت، ولها من العمر نحو خمس وستين، ثم أخذ يتزوج بعدها جريا على الإباحة الأصلية، والعادة المألوفة بين العرب، ولم يكن من الغضاضة أن يتزوج الرجل من يشاء من النساء، دون تقيد بعدد محدود، بل كان ذلك يعتبر شرفاً له، حيث أنه يقوم بشأنهن وما يحتجن إليه من حماية.

فلم يكن زواجه صلى الله عليه وسلم في ذلك الحين مدعاة للملاحظة والاستغراب، أما احتفاظه صلى الله عليه وسلم بزوجاته بعد نزول آية التحديد مع أن من كان من المسلمين له أكثر من أربع زوجات تخلي عن الزائد، واكتفى بالعدد الذي أباحه الإسلام، ذلك أن زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهن أمهات المؤمنين بنص الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يتزوج بإحداهن من بعده، فاذا تخلى عن إحداهن أدى بها الى الحرمان من نعمة الزواج، بخلاف غيرهن من النساء.

وهذا من خصوصياته عليه السلام، وقد سمح الله له ببقاء ما لديه من الزوجات، دون أن يزد عليهن أو أن يبدلهن بغيرهن، وذلك بقوله تعالى: «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج»[1].

من دسائس الأعداء ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ومن الدسائس التي يدُسها العدو ضد الإسلام، ويتخذها ذريعة للطعن به، والنيل من كرامته، إنه صلى لله عليه وسلم كان شهوانيا، شأنه من الدنيا النساء، وإنه كان زوجا لتسع منهن، والحق أنه لا مطعن في ذلك ولا يؤخذ عليه صلى الله عليه وسلم إن

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٥٢.

هو تزوج بذلك العدد من النساء، لو علمنا أن تعدد الزوجات كان من عادة قومه الذين نشأ بينهم، وكان ذلك فخراً وعِزّاً للمتزوجين.

وإذا حققنا في الأمر، وبحثنا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعدها، فيما يتعلق باتصاله بالنساء، لوجدناه محل الطهر والنزاهة والعفاف، والبعد عن كل نقيصة أو عار، فقد كان صلى الله عليه وسلم منذ صغره معروفا بالصدق والامانة والنزاهة، والبعد عما يشين، فما وصم بشيء مما كان يفعله شباب الجاهلية، من لهو ومتعة واتصال بالنساء، عن غير طريق الزواج، رغم ما كان يتحلى به من الشرف والشباب والجمال، وإنه تزوج أول ما تزوج بامرأة ثيّبٍ ذات زوج سابق وأولاد، وهي تكبره بخمس عشرة سنة، وظل معها وحدها حتى أدركتها الوفاة، بعد نحو خمس وعشرين سنة من زواجه بها رضي الله عنها، فلو كان عليه السلام شهوانيا، شأنه من الدنيا التمتع بالنساء، كما يدعون، لظهر ذلك أيام صباه وعنفوان شبابه.

واللاتي تزوج بهن بعد وفاتها، كلهن ثيبات، ذوات أزواج سابقين، وكثيرات منهن لهن أولاد من سواه، ما عدا السيدة عائشة، فقد خطبها وهي صغيرة لحكمة، ولو بحثنا في كل زوجة وما أحاط بها من ظروف ومناسبات، لوجدنا حكمةً ظاهرةً في إقباله عليه السلام في الزواج بكل واحدة منهن.

تاسعا: الطلاق[1]:

الطلاق هو إخلاء سبيل المرأة وحل عقدة نكاحها.

الحكمة من تشريعه:

حسما للنزاع المستمر، وإنهاء الخصومة التي لم ينجح معها أي دواء، وذلك أن الزواج شرع سكينة للنفس ورغبة في النسل الصالح، وتحقيقا للمودة والرحمة بين أفراد الأسرة.

ولا يتحقق ذلك إلا باستقرار الزوجية واستمرارها، وهذا ما قصده الإسلام، فأبطل الزواج المؤقت واشترط في صحة الزواج أن يكون على وجه التأبيد.

وبقاء الزوجية واستمرارها، وعدم حل عقدها، هو الأصل لا يعدل عنه الى سواه إلا لضرورة.

الطلاق ضرورة:

فإذا لم تحقق المقاصد واستحكم الخلاف بين الزوجين، ودب بينهما الشقاق والعداء، وتحول سكون الأسرة وسعادتها الى اضطراب وشقاء، وأصبحت حياتها جحيماً لا يطاق، ولم ينفع معها علاج ولم يخفف من شدتها وساطة ولا موعظة، فما هو سبيل الخلاص؟.

---

(١) يراجع كتاب المرأة بين الفقه والقانون للاستاذ السباعي ص ١٢٢ وما بعدها. وفقه السنة لسيد سابق ٨/ ٥ والأسلام والمرأة للخولى ص ٩٧.

سبيل الخلاص:

قبل إجراء الطلاق ينبغي أن يجرب كل من الزوجين حلولا أخرى، أهون من الطلاق، وذلك كما جاء في الآية الكريمة، التي ترشد الأزواج إلى ما يحسن أن يفعلوه، قبل إيقاع الطلاق: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً»(١).

فالكمال لله تعالى، ولا يمكن أن يكون كل من الرجل والمرأة متفقا بعقله وعاطفته وعاداته وإرادته وهواه للآخر، فاذا وجد أحدهما من الآخر نقصا أو خروجا عن إرادته، فلا ينبغي أن يبادر الى قطع العلاقة الزوجية دون صبر ولا أناة بل عليه أن يتبع المراحل المذكورة في الآية:

١- الموعظة الحسنة والنصيحة الخالصة، دون انتقاص ولا تجريح.

٢- الهجران في المضاجع واظهار الامتعاض من استمرارها في الأخطاء.

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤- ٣٥.

٣- ضربها وهذا العلاج لا ينبغي استعماله إلا إذا تحقق من فائدته، وترجح لدى الزوج نفعه، كما هو في بعض النساء الشاذات العنيدات، فليكن غير مبرح بالسلوك ونحوه، لا بالعصا الغليظة- كما يفعله بعض الجهلة القساة من الأزواج الغلاظ- والضرب هو من جملة العلاجات، التي يترك أمر استعماله لحالة المريض ونوعه، والحكمة في استعماله ولا عيب في وجوده في صيدلية الإسلام، لأن الصيدلية ينبغي أن تحوي أنواع العلاج، ولكن لا تستعمل إلا بحكمة وبمقدار، ولدى الحالة الملحة والنفع الأكيد.

٤- التحكيم لعمل غير الزوجين، ممن يرضيانه حكما عنهما، يستطيع أن يحل ما لا يحله الخصمان.

٥- الطلاق وهو المرحلة الأخيرة الضرورية، التي لا بد منها إن لم يفد أي دواء، وقد قيل (آخر الدواء الكي) على ما فيه من ألم وما يترك من أثر وتشويه، يستعمله المريض، ويتحمل عواقبه في سبيل التخلص، من ذلك الداء الوبيل، الذي لو سرى الى الجسم كله كانت نهايته الوفاة.

وقد أمر الله تعالى الرجال أن يعاشروا النساء بالمعروف، فإن كرهوا منهن شيئاً فليصبروا وليتحملوا، فلعل فيهن خيراً كثيراً، غير ما يكرهون من الخصال قال تعالى: «وعاشروهن بالمعروف فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيراً »[1].

الإسلام لم يرغب في الطلاق:

والإسلام لم يرغب قط بالطلاق، ولم يأمر به، وأباحه على حذر، وجعله أبغض الحلال الى الله، ودعا الى أن تجرب الحلول المتعددة قبل الإقدام عليه، وجعله على مراحل ثلاث، لعل الزوجية ترجع ويسودها المحبة والسلام.

الإسلام لم يبتدع الطلاق:

لم يكن الإسلام أول من شرع الطلاق، بل إن ذلك كان معروفا في كثير من الشرائع، وعند كثير من الأمم، فالإسلام جاء به لأنه ضرورة من ضرورات الحياة، في بعض الأحيان، ولكنه نظمه وأعطى فيه لكل من الزوجين حقه الكامل، دون غضاضة ولا ظلم ولا انتقاص.

والأمم التي أخذت تحارب الإسلام في مبادئه وتشريعاته، وجدت أنه لا بد من الأخذ بصحة إيقاع الطلاق، وهذا اعتراف منها بفضل التشريع الإسلامي وصلاحيته للحياة.

وأن جميع الدول الأوروبية والأمريكية، قد أدخلت حديثاً في تشريعاتها صحة إيقاع الطلاق، ولكن أمام المحكمة وبعد بيان الأسباب.

---

(١) سورة النساء الآية ١٩.

الطلاق ليس سببا في ضياع الحقوق:

الإسلام حينما أباح الطلاق لم يتركه دون نظام وبيان، فقد أعطى لكل من الزوجين حقه الكامل، فالزوجة المطلقة تستحق آجل مهرها ونفقتها أثناء عدتها، ولها حق أخذ الأولاد وللزوج أخذهم بعد أن يكبروا ويستغنوا عن أمهاتهم، ليتولوا تربيتهم والإشراف على تعليمهم وتهذيبهم، ضماناً للحقوق حسب الإمكان.

مراحل الطلاق:

نظراً لما يترك الطلاق وراءه من المخاطر والمساوىء والندم في الكثير من الأحيان، فقد إحتاط الشرع لذلك، وأعطاه ما يستحقه من العناية والتقدير، وجعل الطلاق على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

اذا طلق الرجل زوجته للمرة الأولى، فإن على الزوجة أن تمكث في بيت زوجها مدة ثلاثة أشهر على الأغلب، وهي أيام عدتها، وللزوج في هذه الفترة أن يرجعها إليه دون عقد ولا مهر، ولا أي إجراء من إجراءات الزواج، فاذا أصر على طلاقها ولم يرجعها أثناء عدتها، خرجت من بيته وبقيت الفرصة متاحة لإعادتها، ولكن بعقد جديد، متوقف على رضاها، ورضا وليها، وسائر شروط وأركان الزواج.

المرحلة الثانية:

إذا عادت تلك الزوجة الى زوجها الأول بإرجاع أو بعقد

جديد، ثم أوقع طلاقها مرة ثانية، فإنها تعتد في منزل زوجها، كما فعلت في المرة الأولى، ثم لا تخرج من منزله وبقيت الفرصة متاحة لها بالعودة إلى الحياة الزوجية السابقة.

المرحلة الثالثة:

فإن ساور الزوج الندم، وعادت الحياة الزوجية، بينه وبين زوجته المطلقة للمرة الثانية، فهذه هي التجربة الأخيرة، فإذا أوقع الطلاق فقد انتهى الأمر، حيث لم تفلح التجارب، ولم تعد الحياة الزوجية إلى مجراها، وتبين أنه لا سبيل إلى المعاشرة والمحبة والسلام بينهما، فهذه الزوجة قد باتت منه بينونة كبرى، وانفصلت عنه إنفصالا بعيداً، فلا تحل له إلا إذا صادف أن تزوجها رجل آخر فطلقها من تلقاء نفسه، أو مات عنها، وانقضت عدتها، ففي هذه الحالة يجوز أن يبدأ الزواج بها من جديد، كأنه لم يسبق له من قبل الزواج بها.

وإنما قيد الطلاق بثلاث، لأن كل شيء له حدود ينتهي إليها، وحتى لا تكون الزوجة كالكرة، يضرب بها لاعبها ثم يعيدها إليه في كل مرة على استمرار، فإن للزوجة شرفها ومكانتها، ولأن للتجارب حدودها وغايتها، فليبحث هو عن امرأة غيرها، ولتنظر هي زوجا سواه.

الفرص التي هيأها الشرع للنساء للتخلص من أزواجهن:

لا يحق للمرأة أن تطلب التفريق من زوجها ما دام حسن

المعاشرة والمعاملة، لا يقصر معها في المعاشرة الحسنة، ولا الانفاق بالمعروف، أما اذا أساء معاملتها، أو هجرها وابتعد عنها، أو امتنع عن الإنفاق عليها، فإن لها الحق أن تطالب بالتفريق بينها وبينه، ما دام لم يقم بما أوجب الله عليه من حقوقها، وذلك كما يلي:

السبب الأول:

أن يكون زوجها مريضا جنسيا، لا يستطيع معه أن يعطيها حقها من الاستمتاع، أو مرضا جسميا منفراً كالبرص، أو معديا كالسل، أو منفرا ومعديا معا كالزهري والجذام.

السبب الثاني:

أن يغيب عنها زوجها غيبة طويلة، لا لسبب مشروع مضطر إليه، وإنما لأسباب تافهة، أو من غير أسباب، وحينئذ تنتظره الزوجة، فإن طال غيابه إلى ستة أشهر فأكثر، كان لها الحق أن تطلب التفريق بينها وبينه، بسبب ذلك الغياب.

السبب الثالث:

عدم الإنفاق: إن الله تعالى أوجب على الرجل أن ينفق على زوجته، النفقة الكافية المعتدلة، فإن امتنع لبخل أو عجز، كان للمرأة الحق في طلب التفريق بينها، وبين ذلك الزوج الممتنع عن الإنفاق.

السبب الرابع:

الشقاق: أي الخلاف المستمر، فإذا كان للزوج الحق بتطليق زوجته التي تسبب الشقاق والخصومات، فقد أعطى الشرع للمرأة الحق بطلب التفريق، بينها وبين زوجها. الذي يسيء معاشرتها، ويعاملها بالشدة والقسوة والعدوان، وحينئذ يحاول القضاء أن يصلح بينهما، ويعيد كلا منهما إلى حده، وذلك بتحكيم رجل من أهله ورجل من أهلها، فإن لم يتمكنا من الإصلاح لعناد كل، وتمسكه برأيه، كان لهما الحق في التفريق بينهما، وإنهاء المشكلات والخصومات، فأي ضرر وأي ظلم للزوجة، وقد أعطاها الشرع هذه الفرص للتخلص ممن لا ترضاه من الأزواج؟. فليس للطاعنين بتشريع الطلاق أي حجة ولا برهان إلا مجرد التشويه لجمال الإسلام، واتهام أحكامه بالباطل، والإدعاء الذي لا يوافق عليه عقل ولا منطق سليم، لا سيما وقد أخذت الدول الأوروبية المسيحية بهذا المبدأ، ويعد ذلك اعترافا منها بصلاحية النظام الإسلامي، وأنه أعطى لكل مشكلة من المشكلات الإجتماعية ما تحتاج إليه من الحلول الصحيحة.

وليس بعد الحق إلا الضلال، وبعد اليقين إلا الظن.

نسأل الله تعالى الهداية لأقوم سبيل وأن يجعلنا ممن يرون الحق حقا ويتبعونه، ويرون الباطل باطلا ويجتنبونه، تقربا إليه وإخلاصا لوجهه الكريم.

الفصل السابع

العقوبـــات

أولا: إعتماد الإسلام على تربية الفرد وإصلاحه:

الإسلام ليس قانون عقوبات، بقدر ما هو منهج هداية وطريق إصلاح، لكنه مع ذلك لا يكتفي بالوعظ والإرشاد، لأن البشر ليسوا كلهم على طبيعة واحدة، وما يصلح لجماعة قد لا ينفع أخرى، وقد أشار الشيخ أبو زهرة إلى أن الإسلام يعمل جاهداً لمنع الجريمة بثلاث طرق وهي[1]:

١ - التهذيب النفسي: فإن تربية الضمير هي الأساس الأول لمنع الجريمة، والعبادات تتكلف بهذا، إذ تجعل الإنسان على صلة بربه، ينفذ أوامره، ويتجنب نواهيه، ويشعر أنه عضو في أمة، يعيش في ظلها وحمايتها، ويتمتع بأمنها وتقدمها، فيمنعه ذلك من الحاق الضرر بها، وحسد الآخرين والحقد عليهم، وكلما كان الفرد على صلة بربه، كان ضميره الديني يقظا، ولهذا فوائده، كما يقول الشيخ أبو زهرة ومنها[2]:

(١) فلسفة العقوبة ص ٢٩ الطبعة الأولى.

(٢) الجريمة والعقوبة ص ١٢.

(أ) إن يقظة الضمير الديني تمنع الحقد على المجتمع من جهة، وتزيد من إحساس المسلم بكونه عضوا في مجتمع، وإن ما يقع عليه يمكن أن يتحمله طلباً لثواب الله.

(ب) إن إيقاظ الضمير يسهل الإثبات في الجرائم التي غالباً ما تقع في السر، فإذا شعر المسلم أن من واجبه أداء الشهادة، وأنه يأثم بكتمانها، فانه سيسارع لتحملها وأدائها، كما أن المجرم إذا كان يشعر بأن الله مطلع عليه، وأنه سيحاسبه، فربما دفعه ذلك إلى الإعتراف، تخلصا من عذاب الله، ورضاء بعقوبة الدنيا.

(جـ) إحساس المذنب بأن العقوبة التي تفرض عليه من الرب لا من العبد، فهذا الإحساس يكون احتمال التوبة فيه كبيراً، وهذا بعكس القوانين، فإن الذي يفلت منها يشعر بالقوة والنباهة، ويزداد عتوا وتجبراً، كما أنه يطيع ما دامت السلطة تراقبه، فإن اختفت فعل ما يشاء. والإسلام يأمر بالأخلاق الكريمة ويثيب عليها، ومن حسنت أخلاقه فلا يحتاج إلى اقتراف الجرائم، لأنها لا تتلاءم مع سلوكه الخلقي، ولا مع معتقده.

٢ - تكوين رأي عام فاضل شريف، يستهجن القبيح ويحتقر الشر وأهله، ويتطلع للخير ويشجع فاعله، بل إن الإسلام جعل للمجتمع سلطة، تقوم المعوج باليد واللسان أو القلب، وفي

الحديث: (إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها).

كما منع الإسلام من الإعلان عن الجريمة، حتى عد نفس الإعلان جريمة أخرى، وقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر- فهو في ستر الله، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد)، وقوله: (إن من أبعد الناس منازل عن الله يوم القيامة المجاهرين، قيل من هم يا رسول الله؟ قال: ذلك الذي يعمل عملا بالليل، وقد ستره الله عليه، فيصبح يقول فعلت وكذا، يكشف ستر الله).

ومن المعلوم أن الإعلان عن الجرائم يشجع على فعلها، حتى يجعل من الرذائل أموراً معتادة مستساغة مألوفة، ومن هنا تكون جريمة السينما والتلفزيون والصحافة في نشر الفضائح، والتشجيع على ارتكابها، والله تعالى يقول: «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة»[١].

إن نشر الرذائل والكشف عنها، لا يعود بخير على المجتمع، لهذا لا عجب أن كان هذا الشغل الشاغل للصحافة المشبوهة، والسينما الموجهة.

٣- أما الأمر الأخير الذي تتخذه الشريعة وسيلة لمنع الجرائم فهو العقاب للمخالف لردعه من جهة، وزجر غيره من جهة

(١) سورة النور الآية ١٩.

أخرى، ولمنع تكرار الجرائم، على شرط أن يحدث ذلك أثره من غير أن يكون وسيلة إفساد جديدة.

والعقاب بنفسه شر وفساد، وهو غير مقصود لذاته، (والعقوبات وإن شرعت للمصلحة العامة، فإنها ليست في ذاتها مصالح، بل هي مفاسد، ولكن الشريعة أوجبتها، لأنها تؤدي الى مصلحة الجماعة الحقيقية، والى صيانة هذه المصلحة، وربما كانت الجرائم مصالح، ولكنّ الشريعة نهت عنها، لا لكونها مصالح، بل لأدائها إلى مفاسد، لأنها تؤدي إلى إفساد الجماعة[1]. والهدف وراء العقوبة في الإسلام كما يحدده الشيخ أبو زهرة:

١- حماية الفضيلة، وحماية المجتمع، من أن تتحكم الرذيلة فيه.

٢- المنفعة العامة أو المصلحة، فما من حكم في الإسلام إلا كان فيه مصلحة الناس[2].

ثانيا: الشذوذ الفردي وأثره في المجتمع:

لو تصورنا أن دولة ما منعت العقاب بكل ألوانه فماذا سيكون؟ لا شك أن غرائز الإنسان وحوافزه ستنطلق لتدفع بالفرد ليعمل ما يجده في مصلحته، وما تطلبه نفسه، وكما تقدم فإن الكثير من المنهيات تجلب لأصحابها المنفعة: إذ السرقة مثلا أقل كلفة ومشقة من العمل، والاحتيال أسهل بكثير من الصدق

---

(١) التشريع الجنائي للمرحوم عبد القادر عودة (١/ ٦٨).

(٢) فلسفة العقوبة لابي زهرة ص ٢٣.

والإتقان، حتى الزنا أقل كلفة ومسؤولية من الزواج على الرجل، والكذب أسهل وأهون من الصدق، فاذا نظر كل إنسان لمصلحته وحدها، وتصرف بوحي منها، فإن في ذلك خراب العالم لا محالة، ومن هنا يأتي دور العقوبة كرادع للفرد نفسه، حتى لا يعاود فعله، وزاجر للآخرين، من أن يقتدوا به، أو يفعلوا فعله.

ومن هذه الزاوية، حرص الإسلام على إعلان العقوبة، وعدم التساهل فيها، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب أشد الغضب، حين رجاه بعض أصحابه، أن يوقف قطع يد امرأة شريفة سرقت، وعد ذلك من أسباب انهيار الأمة وسقوطها، فقال: (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).

ومن هنا نفهم قوله عليه السلام (إن حداً يقام خير من أن يمطر الناس أربعين سنة)، لأن استقامة الأمة وحياتها، رهينة بعقوبة المسيء، وشكر المحسن، فإذا ترك الحبل على الغارب، فسد المجتمع وانهار، ولا نخادع أنفسنا فنقول: الثقافة والتقدم تمنع الجرائم، فالأمم الموصوفة بالتقدم، تسجل معدلات أعلى للجرائم، وأكثر خطورة، وأعنف في الأفساد من غيرها.

وإذا كانت الجرائم في الدول غير المتقدمة فردية، فهي في الدول الأخرى ذات تنظيم وتنسيق، وفيها خطط وربما كان لها خبراء.

وأخيراً: هل الإستعمار وسرقة موارد الشعوب وحريتها، إلا جرائم اختصت بها الدول المتقدمة، دون سواها، والكبيرة دون الصغيرة؟.

ثالثاً: هدف العقوبات الإسلامية حماية المصالح الأساسية للحياة:

وهذه المصالح الأساسية، محل اعتراف عالمي بها، في الشرائع والقوانين، وقد جعل الإسلام أكثر من عقوبة للمحافظة على هذه المصالح وهي:

١- حماية الدين باعتباره خاصة من خواص الإنسان، فلا يجوز أن يتخذ وسيلة لهو أو لعب، بل يجب أحترامه احتراماً للإنسان وكرامته، فإذا أراد أحد العبث، فله عقوبته المناسبة (من بدل دينه فاقتلوه)، ذلك أن الإنسان الذي يعتنق الإسلام- بحريته- فإنه يصون بذلك دمه وماله وعرضه، فإن هو رجع الى الكفر ثانية، فقد أهدر دمه، لأنه بالإسلام اكتسب حقوقاً، وبرفضه الإسلام غيَّرها واسقطها، وذلك أمر طبيعي.

٢- حماية النفس كلا أو جزءاً، ومن كل وجه، سواء ما يتعلق بالاعتداء المادي على الإنسان أو المعنوي كإهانته، والإعتداء على حريته وكرامته، وكل ما يمس كيانه فيسيء إليه وقد جعل الإسلام لكل إعتداء عقوبة.

٣- حماية العقل والمحافظة عليه، بحيث يظل سليما منتجا، فإن

الإنسان وإن كان المستفيد الأول من سلامة عقله، إلا أن المجتمع يتقدم والحضارة تزدهر، بفضل عقل الإنسان وما ينتجه.

ومن هنا تكون جريمة من يفسد عقله، موجهة ضد المجتمع، لأنه سيتحول من شخص نافع مفيد لمجتمعه، إلى شخص عالة على هذا المجتمع، ومن هنا كانت عقوبة شارب الخمر، لأنه يتلف جهازاً حضارياً لا يستغني عنه المجتمع.

ومن هنا أيضاً، جاء تحريم القوانين الوضعية للحشيش والإفيون بينما أهملت الخمر، وربما كان الخمر أفتك من الحشيش، فلماذا هذا التفريق؟ ولقد بالغت بعض الدول حتى أوصلت عقوبة مهرب ومتعاطي الحشيش إلى الموت، بينما أباحت الخمر أليس هذا التناقض غريباً؟.

٤- المحافظة على النسل وحمايته، ومن أجل ذلك حرم الإسلام الزنا، وأباح الزواج ونظمه، وحدد مسئولية جميع الأطراف فيه، كما منع كل وسيلة، يمكن أن توصل إليه، كما منع الاعتداء بالقذف، وحَمّل القاذف عبئه صيانة لكرامة الإنسان وعرضه. ومما لا شك فيه أن كرامة المرأة وصيانة الأطفال يوفرها الزواج، بينما يهدمها ويهدرها الزنا، وقد كان المتصور خطأ أن حرية المرأة واختلاطها سيبعدها عن ميدان الزنا، ولكن الواقع المؤلم أثبت نقيض ذلك، حتى قد

جاء في إحصائية لهيئة لأمم، أن العالم يشكو من مشكلة أولاد الحرام، فقد ارتفعت النسبة في بعض الدول حتى وصلت الى ٦٥٪ من المواليد بينما وصلت في بعض الدول مثل (بناما) الى ٧٥٪ بينما اختفت هذه النسبة في البلاد الإسلامية، لأن الإسلام حماها من هذه الظاهرة الإجتماعية الخطيرة.

٥- حماية الأموال: فقد منع الإسلام جميع أصناف الإعتداء على الأموال، من سرقة أو غصب أو احتيال، أو غير ذلك، لأن هذا الباب لو فتح فستكون عواقبه وخيمة، لا يعلمها إلا الله، فلا أحد يكد ولا يكدح، ولا يعمر ولا يزرع، إنما يعيش على السرقة والاحتيال، وهي أيسر وأقل مشقة وكلفة، وقد حسمت الشريعة ذلك بعقوبات صريحة مخيفة، حماية لجهود الناس، ودفعا لترويعهم وإخافتهم.

ومما تقدم هي المصالح الأساسية للحياة، وبتوفيرها يشعر الفرد بأمنه وراحته، وفي ظلها تزدهر الحضارة وتتقدم الأمة، وبفقدها كلاً أو بعضاً قلق الأمة وتدهورها، وفقد أمنها وأمانها، وخراب حضارتها وعمرانها.

رابعا: العدالة في العقوبات:

والناظر للعقوبات في الإسلام يجدها عادلة، فهي تعاقب على الذنب بمثله، ولا تسمح بالزيادة بحال من الأحوال، بل تميل الى أن يأخذ الإنسان حقه أو أقل منه، ولكنها لا تسمح بالزيادة في حال

من الأحوال، والشيء الوحيد الذي يبدو متشدداً فيه هو السرقة، فمن اقترفها وجب عليه ردها أو رد ثمنها يوم سرقها، ثم قطع يده، متى استوفى شروطا معينة.

وحيث أن السرقة يصاحبها ترويع الفرد وتهديد أمنه، لذلك كانت العقوبة شديدة، وقد شددت القوانين الوضعية فيها كذلك، في ظروف معينة، كحصولها بليل، ومن قبل جماعة معهم سلاح، ومن قبل أناس لا يتصور منهم ذلك كالخدم.

وفي هذا يقول الشيخ أبو زهرة (... وإنه يتفاوت أنواع الأذى التي تحدث من الجريمة، تتفاوت العقوبات في الإسلام، فبمقدار الجريمة تكون العقوبة. القصاص أساس العقوبات في الفقه الإسلامي فمن قتل يقتل، ومن فقأ عينا تفقأ عينه، ومن ضرب يضرب وهكذا فمقادير العقوبات مشتقة من مقادير الجرائم، في الفقه الإسلامي، ولكن يلاحظ أنه عند تقدير الجريمة لا بد من اعتبار أمور ثلاثة:

١- مقدار الأذى الذي ينزل بالمجني عليه.

٢- مقدار الترويع والفزع العام الذي تحدثه الجريمة.

٣- مقدار ما فيها من هتك لحمي الفضيلة الاسلامية، ومقدار الزجر والردع في العقوبة، فإن الزجر العام وأثر العقوبة في ردع المعتدين لكيلا يقع أحد في مثلها، غرض من أغراض الشارع، وأعظم أهدافه، فالسرقة لا تكون عقوبتها بالمساواة

بين ذات المال المسروق والعقوبة، لأن الجناية ليست في ذات المال فتقدر بمقداره وإلا لم يكن بينها وبين النصب أو الغش فرق، وهي تختلف عنهما في كل الشرائع، قديمها وحديثها، فعقوبة السرقة أغلظ في كل الشرائع، من عقوبة النصب والاحتيال، والسبب في ذلك هو الترويع الذي تحدثه جريمة السرقة، لأنها عادة تحدث في غفلة من الناس، وإن سرقة في حي تفزع الحي كله، وإننا لو رجعنا إلى أحكام المحاكم في عقوبة السرقة، لوجدناها تعظم كلما كان الإعتياد، ومن غير نظر إلى مقدار المسروق، فقد يحكم على معتاد السرقة بعشر سنين في سرقة حقيبة نقود، قد يكون ما فيها قروش، لأنها لاحظت الترويع الذي يحدثه السارقون، وتقدر العقوبة بمقدار هذه الجريمة، وبمقدار اعتياد السارق، لا بمقدار المال المسروق.

خامسا: المساواة بين الناس في الحدود:

شدد الإسلام على المساواة في الحدود، لكل من اقترف ذنبا يوجب الحد، ينبغي أن يحد، لا فرق في ذلك بين شريف وضعيف، غني أو فقير، وقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من حديث في هذا، بل نقل عنه، أن الخلل في ذلك يسبب هلاك الأمة ودمارها، فيتجرأ الأقوياء على الجرائم، ويخافها الضعيف، فتزول القناعة، وتذهب العدالة، ويتسلط الأقوياء على الضعفاء، وفي هذا ما فيه من الخطر المحدق بالدولة والمجتمع، يقول الأمام ابن

تيمية: (وهذا القسم يجب إقامته على الشريف والوضيع، والقوى والضعيف، ولا يحل تعطيله، لا بشفاعة ولا بهدية ولا بغيرها، ولا تحل الشفاعة فيه، ومن عطله لذلك وهو قادر على إقامته، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً وهو ممن اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً)، روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله في أمره..)

وفي الصحيحين عن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله؟ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد، فقال عليه السلام يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله؟ إنما أهلك بنوا اسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[1]).

---

(١) السياسة الشرعية ص ٧٩

الفصل الثامن

العلاقات الدولية في الاسلام

لقد اشتهر بين الكتاب أن العالم ينقسم إلى دار إسلام ودار حرب، وهذا التقسيم يمكن أن يكون أخذاً من الواقع التاريخي. أكثر منه للتقسيم الموضوعي.

لذا رأينا بعض الكتاب المسلمين المتأخرين، يستنبطون صنفا ثالثا أسموه (دار العهد) وقد استنتجوه من كلام الفقهاء المتقدمين.

دار الاسلام:

هي الدولة التي تحكم بالإسلام والسلطة فيها للمسلمين.

دار الحرب:

ولقد جرى في تعريفها خلاف بين الفقهاء على الوجه الآتي:

١ - يرى أبو حنيفة والزيدية أن دار الحرب هي ما توفرت فيها الصفات الآتية(١):

---

(١) المبسوط للسرخسي ١٠/ ١١٣ والعلاقات الدولية لأبي زهرة في ٥٣.

(أ) أن يظهر فيها أحكام الكفر .

(ب) أن لا يبقى مسلم آمن بإيمانه ، ولا ذمي آمن بأمانه .

(جـ) أن تكون متاخمة لدار الحرب.

٢- مذهب أحمد والشافعي ومالك، إنها الدار التي يظهر فيها الكفر ، ولا يكون بينها وبين المسلمين عهد(١).

والشرط الأخير للأحناف أصبح لا لزوم له، مع تطور وسائل الحرب، ولم يعد القتال يحتاج الى متاخمة، أما مقتضى الشرط الثاني:

إن البلاد التي يكون فيها المسلم آمنا على حريته الدينية، وكذلك سائر الأقليات، فلا تعتبر دار حرب عند أبي حنيفة، متى استمرت علاقات السلام مع المسلمين.

دار العهد:

وهي الإقليم الذي بينه وبين المسلمين عهد وسلم، وليس مما يتبع الإسلام، ومثل هذا كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصارى نجران، حيث كان هناك اتفاق، يمنح بموجبه أهل نجران الأمان، على أنفسهم وأموالهم من أي اعتداء من المسلمين.

---

(١) الافصاح لابن هبيرة ٣٤٨ والمغني لابن قدامة ٨/ ٥٥٤ والعلاقات الدولية لأبي زهرة ٥٣.

وكذلك كان الاتفاق بين قائد جيوش المسلمين في الشام (أبي عبيدة)، وبين أهالي حمص، تعهد فيه القائد بحمايتهم من الرومان، ومثل هذا العهد كان بين إبن أبي السرح، قائد المسلمين في أفريقيا، وبين أهل النوبه، وكان بمقتضاه تأمينهم ورعاية استقلالهم وحماية تجارتهم.

كذلك فعل معاوية مع أهل أرمينية، حين عقد معهم إتفاقا يقرر سيادتهم الداخلية[1]، ولا شك في أن أغلب دول العالم هي من هذا الصنف الأخير، إلا إذا نشبت بينهم وبين المسلمين الحرب.

وفي الختام ينبغي أن نذكر بأن العالم الغربي إلى عهد قريب، لم يكن ليعتبر المسلمين من المجموعة الدولية، بما كان له أثره في نفوس المسلمين، وقد قال محمود كامل: (... وواجب الإنصاف يقتضينا أن نذكر هنا، أن الجماعة الإسلامية كانت محقة في هذا الإتجاه الفقهي الدولي، إذ منذ نشأ القانون الدولي الحديث، كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية، وعدم الإعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون).

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية... بل لقد ذهب فقهاء إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم في أوروبا، على أساس

---

(١) العلاقات الدولية لابي زهرة (٥٦)، والثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ٢٢٦، والنظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ٥٢٠.

تكتل الدول المسيحية ضد العثمانيين، فظهرت عدة مشروعات من هذا النوع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كمشروع (وليان بن) ومشروع (الكاردينال البروني)، كما أن الدول الأوروبية من ناحيتها لم تكن راغبة في إشراك الدولة العثمانية، في العائلة الدولية، فبينما وضعت أسس القانون الدولي في مؤتمر (وستفاليا) سنة ١٦٤٨ م لم تشترك الدولة العثمانية في هذا الشأن. ويخلص مما تقدم، أنه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة إسلامية أخرى، تتمتع بحقوق القانون الدولي.

ولم تنضم الدولة العثمانية- وكانت الدولة الإسلامية الوحيدة، صاحبة السيادة الكاملة- إلى الأسرة الدولية إلا بتوقيعها على صلح باريس عام ١٨٥٦ م (١).

ثانيا: الحرب والسلم في الإسلام:

تقدم أن دول العالم يمكن تصنيفها الى ثلاثة اصناف: دول إسلامية ودول محاربة ودول معاهدة، وان العلاقة بين الدولة المحاربة أو الدول المعاهدة ودولة الإسلام، تختلف اختلافاً كبيراً.

والإسلام يفرق بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية، كما يربط الحرب بأهداف الدولة وعقيدتها، فالدولة التي تهاجم

---

(١) القانون الدولي الغربي لحمود كامل ١١٨.

المسلمين في ديارهم فعلى كل فرد أهل للحرب أن يهب للدفاع، إذ ذلك من فروض العين.

أما إن كانت الحرب هجومية، فهي من فروض الكفاية.

والإسلام لا يحبذ الحرب، ويعتبرها من الشرور والمكروهات، ولكنها في كثير من الأحيان تصبح وسيلة لا بد منها.

والإسلام كما عرف الحرب الدفاعية والهجومية، عرف الحرب الوقائية، فحين يكون العدو في وضع الاستعداد للحرب، فليس من الصواب أن ننتظره حتى يشنها علينا، بل يمكن مفاجأته بالحرب قبل أن يكمل استعداده لها، متى تأكد لدينا توفر نيته في العدوان، والى هذا وأمثاله تشير الآية: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم».

فقد ثبت أن الإستعداد المستمر للحرب، يكون في كثير من الأحيان رادعاً للعدو، من شن الهجوم.

ومن العجب العجاب، فإن الذين يتهمون الإسلام بالعدوانية، هم أنفسهم الذين استعمروا العالم، وأعطوا لأنفسهم حق التصرف بمصائر شعوب وقارات بأكملها، كما أبادوا شعوبا وموتوا أمما ونهبوا خيرات بلاد، وهم قد فعلوا كل ذلك بعد أن فرضوا سلطانهم بالحديد والنار، ولكنهم ينسون كل جرائمهم، ويتهمون الإسلام وحده بالعدوان. إن الإسلام مكث أكثر من ثلاثة عشر عاما في

مكة لم يرفع فيها سيفا، في وجه أحد، لكنه بعدما وجد العدوان ينصب على أفراده، والسدود تقام في وجه نشره، اضطر إلى حمل السلاح، وكان مقيداً بقتال المحاربين وحدهم، ولحسن الحظ، لم يكن للمسلمين أدوات دمار، فلا طائرات ولا مدافع ولا صواريخ، وإنما رمح ومقاتل في وجه مقاتل، أما الذين يعيبون على الإسلام فهم أولئك الذين خاضوا في دماء البشرية، وشربوا منها حتى الثمالة.

واليوم إذا كفت الدول عن العدوان، وأعطت الحرية الدينية لأفرادها، فلا حاجة للحرب، لأنها ليست هدفا يعمل الإسلام لتحقيقه، وإنما هي وسيلة، فإن استغني عنها فلا داعي لها.

والإسلام لم يترك جيوشه وقيادتها تفعل ما تشاء، بل حدد لها السلوك، فقد نقل عن الصديق قوله لقائد جيوش الشام، يزيد بن أبي سفيان (... إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيراً هرما، ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا نخلا ولا تحرقنها، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكلة، ولا تجبن ولا تغلل)[1].

وقد نقل عن صلاح الدين الأيوبي إنه أسر عدداً كبيراً من الصليبيين، حتى ضاق عليه الطعام، فخاف عليهم الموت جوعاً، لكنه يعلم أنه إن تركهم فسيعودون لقتاله مرة أخرى، فأطلق

---

(١) العلاقات الدولية لأبي زهرة ٩٦.

سراحهم، فكان أن تجمعوا وقاتلوه، لكنه رأى وفقاً لمبادىء الإسلام أن الأكرم له أن يقاتلهم في الميدان، من أن يتركهم للجوع يقتلهم)[١].

وحين وقع نابليون بنفس المشكلة، اختار السيف حلاً لها: فقد نقل أنه حاصر عكا، وأسر عدداً كبيراً من أهل الشام، ولم يكن عنده فضلة طعام، فحصدهم بالسيف وقضى عليهم[٢].

والصليبيون حين احتلوا القدس، خاضت خيولهم بدماء الشهداء من المسلمين، فلما فتحها صلاح الدين سمح للصليبيين بالجلاء عنها، وأخذ ما يستطيعون من أموالهم معهم.

ثالثاً: المعاهدات في الإسلام وأنواعها:

عرف الاسلام منذ نشأته المعاهدات المكتوبة، وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم العديد منها، وكانت من أولاها العهد الذي بين المهاجرين والأنصار، وتحديد العلاقات، والتوفيق بين الأوس والخزرج، ثم المعاهدة مع اليهود، التي حددت العلاقات بينهم وبين المسلمين، مع تحريم الاعتداء، والتضامن لدفع العدوان الخارجي، والتحالف الدفاعي.

---

(١) العلاقات الدولية لأبي زهرة ٩٦.
(٢) العلاقات الدولية لأبي زهرة ص ١٠٣.

كما عقد الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدة مع القبائل العربية، من جهنية وبني ضمرة وغفار، التي كانت منتشرة حول المدينة، حتى البحر الأحمر، وفي سنة (٦٢٨ م) عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، معاهدة الحديبية، بينه وبين قريش، قرر بموجبها منع الحرب والاعتداء، حتى على حلفاء الطرفين.

وكان عليه السلام يكتب هذه المعاهدات ولا يكتفي بعقدها شفهيا، وهذا ما يقرره حاليا القانون الدولي، الذي يتطلب تسجيل الاتفاقيات وتوقيعها، من الاطراف المتعاقدة[1].

وقد سار المسلمون بعد ذلك على توقيع المعاهدات والاتفاقيات، ولكنها كانت ذات طابع مؤقت، بسبب عدم توفر الاطمئنان، ولإستمرار الحروب والاعتداءات.

أما حين انتشر السلام والأمان وحرية التدين، بحيث يستطيع المسلم نشر الإسلام بحرية، فيمكن عقد معاهدة دائمة.

وعلى العموم فإنه من الجائز شرعا عقد معاهدات بغرض حسن الجوار، والصداقة والتجارة، أي نوع من أنواع التعاقد الدولي، لإقرار السلم، وتبادل المنافع، كما يقول بذلك الدكتور عبد الرحمن عزام[2].

والملاحظ أن دراسة المعاهدات لدى الفقهاء، كانت مرتبطة

---

(١) القانون الدولي العام للدكتور حامد سلطان ص ١١.

(٢) الرسالة الخالدة ص ١٠٩

بحالة الحرب، وكانوا يدرسونها في الغالب على أساس أنها من نتائج الحرب، ولهذا التصور والارتباط، قال الكثير بأن حالة الحرب بين المسلمين وغيرهم، هي الأصل، أخذاً من الواقع التاريخي، وليس من النصوص الشرعية[1].

رابعاً: أنواع المعاهدات:

يمكن تقسيم المعاهدات في الاسلام إلى دائمة ومؤقتة[2]:

١- المعاهدات الدائمة: وهي عقود الذمة التي تقع بين الدولة المسلمة والمواطنين من غير المسلمين، بهدف حمايتهم، وتمتعهم بحقوق المواطنة، مع الإعفاء من بعض الواجبات، التي تهدف إلى حماية الدولة المسلمة مقابل ضريبة يدفعها هؤلاء للدولة. وهذه الاتفاقيات تبقى نافذة المفعول، واجبة الرعاية ما دام الطرف العاقد لها (الذميون) يلتزمون بمضمونها، ولا يخرجون عليها، فإن هم خرقوها، وخرجوا عليها، فهذا يكون مبرراً لتركها ونقضها، ويمكن أن نضيف لها سائر المعاهدات التي تبرم لأغراض حسن الجوار والصداقة، أو التجارة، أو تبادل المنافع وأمثالها، أنه لا مانع شرعاً من ذلك ما دمنا نقول إن حالة السلم هي القاعدة.

٢- المعاهدات المؤقتة: ويمكن تقسيمها الى:

---

(١) آثار الحرب للدكتور الرحيلي ص ٢٥٧، والعلاقات الدولية ص ٧٩.

(٢) المراجع السابقة الرحيلي ٣٥٦ والعلاقات ٨١.

(أ) معاهدات أمان: إن كانت مع مجموعات قليلة العدد من غير المسلمين، وينتهي مفعولها عادة بانتهاء أجلها، ما لم تجدد.

(ب) المهادنة أو الموادعة: وهي التي تعقد مع الأعداء لغرض إيقاف القتال، لفترة معينة، بشروط محددة.

(جـ) سائر الاتفاقات التي ينص عليها بتحديد أمدها، كالمعاهدات الثقافية، والتجارية والإعلامية وغيرها.

(د) معاهدات الصلح: وهي التي تنهي عادة حالة الحرب، وينبغي الوفاء بها ما دام الطرف الآخر ملتزما بنصوصها أو أهدافها.

يبقى أمر عام يذكره الفقهاء، وهو عدم جواز عقد معاهدة مع غير المسلمين، إذا ثبت أنهم يحكمون برعيتهم ظلما وعدواناً، بل يشترط العدل فيهم، لأن الشروط التي لا تقبل في الإسلام يجب رفضها أخذاً من قوله عليه السلام: (كل شرط ليس في كتاب الله باطل).

ويعلق الشيخ أبو زهرة على هذا فيقول: (هذه لفتة عادلة من الفقهاء، ويجب أن تقرر أن كل شرط فيه ظلم للرعايا لا يجوز للمسلمين أن يقبلوه في أي صلح، إلا أن يكون ذلك لغاية تؤدي إلى عدل كامل مسيطر، وفي الحقيقة إن الإسلام سينظر إلى أمر الرعايا الذين يحكمون بالظلم، ويقيدون في حرياتهم، نظرة رحيمة

عاطفة، ينصرهم إذا استنصروه، ويرفع عنهم ضرر الطغيان إن هم استعانوا به)[1].

خامساً: معاملة الأسرى:

جاء في الأحكام السلطانية: إن الأسرى هم الرجال المقاتلون من الكنار، إذا ظفر بهم المسلمون، والإمام مخير فيهم إذا أقاموا على كفرهم، في فعل الأصلح من أحد الأربعة أشياء هي:

١ - القتل.
٢ - الاسترقاق.
٣ - الفداء بمال أو أسرى.
٤ - المن بغير فداء.

فإن أسلموا سقط القتل عنهم.

ومن رأى الإمام منهم مرجو الإسلام، مطاعا في قومه، ورجا بالمن عليه، إما إسلامه أو تألف قومه، منّ عليه وأطلقه، ومن وجده منهم ذا مال وجدة، وكان بالمسلمين خلة وحاجة فاداه على مال، وجعله عدة للمسلمين، وقوة للاسلام، وإن كان في أسرى عشيرته أحد من المسلمين من رجال أو نساء فاداه على اطلاقهم[2].

ويجدر بنا أن نقول إن الأسرى قديما كانوا يذبحون، أو

---

(١) العلاقات الدولية ص ٨٣.
(٢) الاحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٢.

يقدمون قرابين للآلهة، ثم جاءت بعد ذلك مرحلة استعبادهم، وكان كل من الفرس والأغريق يُنكِّلون بهم أشد تنكيل[1]، أما الإسلام فقد أمر بالإحسان لهم ومعاملتهم معاملة كريمة.

وقد جاء في القرآن الكريم «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً»[2]. وجاء في الحديث: (استوصوا بالأسرى خيراً).

وقد روى ابن عمير قال: (مربي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال له: شد يديك به، فان أمه ذات متاع، قال: وكنت في رهط من الأنصار، حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غذائهم وعشاءهم خصوني الخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، فاستحي فأردها، فيردها عليّ ما يمسها)[3].

سادساً: الرق:

الرق نظام معمول به في العالم القديم، تعرفه الديانات السماوية من يهودية ونصرانية، وقد فاضت التوراة به، جاء في سفر التثنية (واذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها فادعها أولا إلى الصلح، فإذا أجابت إلى الصلح، وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها

---

(١) آثار الحرب للرحيلي ص ٤٠٤

(٢) سورة الانسان الآية ٨.

(٣) آثار الحرب للرحيلي ص ٤٠٥.

يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلٰهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك، التي أعطاك الرب إلٰهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن الشعوب التي يعطيك الرب إلٰهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما)[١].

وسفر التثنية مملوء بالقتل والاسترقاق، وحرق المدن، وحتى الحيوانات، بل إن اليهود قد عرفوا أكثر من سبب للرق، منها رد الخطيئة والعصيان، فمن فعل معصية يسترق عند اليهود، حتى يكون كفارة له، كما مارسوا رق الحروب للبلاد المفتوحة صلحا، وبيعهم كسلع تجارية:

وفي المسيحية نصوص صريحة بالاسترقاق، جاء في الانجيل (أيها العبيد أطيعوا سادتكم، حسب الجسد بخوف ورعدة، في بساطة قلوبكم، عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة، كما للرب، ليس كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد المسيح، للناس عاملين، أن همها، عمل كل واحد من الخير، فذلك يناله من الرب، عبداً كان أو حراً)[٢].

---

(١) سفر التثنية الاصحاح ٢٠.

(٢) العهد الجديد الاصحاح السادس.

كذلك عرف الرومان الرق بكل أصنافه، ونقله عنهم اليونان، حتى قسموا الانسان إلى حر بالطبع ورقيق بالطبع، وجعلوا الثاني مخلوقاً ومسخراً للأول[١].

ولم تكن حالة الرقيق أفضل عند قدماء المصريين أو الفرس أو البابليين أو براهمة الهند، كذلك عرف العرب نظام الرق نقلا عن غيرهم، ومن ذلك الرق بسبب الحرب، أو الشراء، وقد حرم الرقيق من حرية التصرف، كما حرم من الحقوق المدنية كلها[٢].

وحين جاء الإسلام وجد العالم يعترف بنظام الرق، فلو منعه الإسلام فسيكون ناشزا لوحده، فمن باب المعاملة بالمثل، سمح الإسلام بالاسترقاق خلال الحرب، فضيق وسائل الاسترقاق، فجعلها محصورة بالحرب، أو الشراء، ومن جهة أخرى راح يوسع في طرق الحرية لهم ومن ذلك:

١- الإعانة على شراء الحرية: فالعبد الذي يكاتب سيده على مبلغ من المال يشتري حريته، يدفع له من أموال الزكاة معاونة له.

٢- نظام التدبير: وهو توقيت حرية العبد على وفاة سيده، فهو يخدمه ما دام حيا، فإن مات فهو حر.

٣- أم الوليد: وهي أمة تلد من سيدها ولداً، فيكون طريقة لتحريرها، فلا يجوز بيعها، لأنها حررت عن هذا الطريق.

---

(١) النظم للدكتور صبحي الصالح ص ٤٦٦ وآثار الحرب للرحيل ص ١٤٤١.
(٢) النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص ٤٦٧.

٤- الكفارات: فمن قتل خطأ أو شبه عمد مثلا فعليه عتق رقبة، حتى لو اشترك عدة أفراد في قتل انسان واحد، فعلى كل واحد عتق رقبة مستقلة.

٥- الجماع في نهار رمضان: فمن جامع زوجته في نهار رمضان فليزمه عتق رقبة.

٦- في الظهار: فمن ظاهر زوجته فيلزمه عتق رقبة.

٧- في التعذيب: فمن عذب عبداً له فجزاؤه عتقه كما ورد في السنة.

٨- التطوع: وذلك بطلب الأجر ومرضاة الله.

وما دام الإسلام- ينظر إلى الواقع- حين اعترف بنظام الرق. واليوم لا يوجد رق فردي، ولكن هناك استرقاق جماعي. فالدول الكبيرة تسترق الدول الصغيرة والضعيفة، وتملي عليها ما تريد، وبعض فئات في دول تستأثر بالحكم والمال، وكل شيء، فتشرع ما تريد، وتفعل ما تشاء، فتسترق فئات وجماعات، قد تكون أكبر منها عدداً، ولكنها لا تسمي هذا رقا، بل تعطيه اسماء ومبررات كثيرة، والعبرة للمعاني، وليست للأسماء، فليس هناك ما يمنع شرعا من الغاء الرق، وتحرير العبيد، بل ذلك قربة من قربات الله تعالى. ومن العجائب في هذا العصر أن يؤاخذ الإسلام على الرق الفردي، من قبل أناس شرعوا الرق الجماعي، في هذا العصر، ومن قبل أناس استرقوا شعوبا، بل قارات بأكملها، ومن

قبل شعوب ترفض إلى هذه الساعة، أن تساوي بين الأبيض والأسود، لمجرد لونه، لا لكونه عبداً، بينما يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ثلاثة عشر قرنا جارية، فيرفع بذلك قولاً وفعلاً منزلة العبيد، حتى يجعلهم أخوة الأحرار.

وقد نقل عن عمر بن الخطاب وهو يبحث في أمر اختيار خليفة للمسلمين قوله: (لو كان سالم حيا لوليته). وسالم هذا عبد لأبي حذيفة حرره، كما ينقل عن ابن الخطاب رضي الله عنه قوله: بلال سيدنا، وقد أعتقه سيدنا، يعني أبا بكر، وقد كان بلال رضي الله عنه، يرتقي سطح الكعبة ليؤذن عليها.

إن الذين يعيبون على الإسلام، ويشنعون عليه، ما تزال أيديهم ملطخة بدماء الشعوب بل إن بعضهم ما يزال يفرض على شعوب بكاملها ألوانا من السيطرة والاستعباد لم يعرفها العبيد.

الفصل التاسع

الإسلام والتيارات المعاصرة(1)

أولا: تحديات الجاهلية القديمة والحديثة للاسلام:

ورد ذكر الجاهلية أكثر من مرة في القرآن الكريم، كما ورد في السنة، قال تعالى: «أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون(2)». وقال: «وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى(3)»، ونقل عن رسول الله ﷺ قوله (من لم يجاهد ولم يحدث نفسه بالجهاد مات ميتة جاهلية)، وقد جاء في حجة الوداع (.... ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع...).

ومن الواضح أن الجاهلية لا تعني فترة زمانية ذهبت ولن تعود، بل تعني وضعا معينا ذا صفات وقواعد، يمكن أن نوجزها بما يلي:

---

(1) الثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ٩٢.

(2) الفكر الاسلامي الحديث للبهي ص ٧١.

(3) التربية الدينية لوزارة المعارف العراقية ص ٨٣.

١- عدم الإيمان بالله والتسليم له، والرضى بشريعته، مما ينجم عنه جهل بشريعة الله، واتخاذ شريعة أو شرائع مغايرة.

٢- وحيث أن المجتمع البشري لا بد له من نظم تحكمه، وتوَّضح علاقة أبنائه بعضهم ببعض، وحيث أنهم رفضوا شريعة الله، والإيمان به، إذن فلا بد أن يضعوا لأنفسهم احكاماً بديلة عن شريعة الله، وحيث أن الإنسان فيها هو المشرع، فلا بد أن يميل بها يمينا أو شمالا، حسب أهواء المشرعين ومصالحهم، متأثرين بالزمان والمكان، منتزعين حق الله ومدَّعينه لأنفسهم.

٣- التحليل والتحريم حسب أهوائهم ومزاجهم، فالخمر مثلا حلال، ولا عقاب لشاربها، لكن من يتعاطى الحشيش فعقوبته الإعدام، ومن يتعدى على الناس فله أقل العقاب، فإن كان المعتدي عليه الدولة فله الموت لأتفه جريمة.

٤- انقلاب الموازين حتى نجد في الدول المتجاورة أنظمة متناقضة، فبينما يكون الطلاق هنا مباحاً، ويقع لأتفه سبب، يكون في دولة مجاورة محرما، بل قد يقع الخلاف بين ولاية وأخرى في الحكومة الواحدة، كذلك نرى بعض الدول تتشبث بالملكية الفردية، وتعتبرها أساس نظامها، بينما تعتبرها دول مجاورة جريمة من الجرائم المعاقب عليها.

٥- شيوع التعصب: سواء أكان للوطن أو الجنس أو القومية،

وجعلها أساس التعامل والتفاضل، فهذا أبيض وذاك أسود، وهذا عربي وذلك تركي.

وقد نقل عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية). وهذه بعض ملامح الجاهلية.

أما التحديات التي جابهت الإسلام قديما وحديثا فهي كثيرة متنوعة ومختلفة من عصر إلى عصر، وقد قيض الله من المسلمين من رد على هذه التحديات بأسلوب أو بآخر، وإذا تدرجنا مع التاريخ فسنجد أول التحديات كانت من قريش، ثم من اليهود الذين تحالفوا معهم ضد الإسلام وأهله، وبعد أن بسط ظله على مكة، وأسلمت قريش وأجلى اليهود كان التحدي عسكريا، ومن وراء الحدود، وقد كان النصر فيه حليف الإسلام والمسلمين، فهدم المسلمون الامبراطورية الفارسية وقذفوا بالروم وراء البحر.

٦- ثم كان التحدي الثاني بعد الفتوح والانتصارات العسكرية، كان ذا طابع ثقافي كلامي، فكانت حملات التشكيك والزندقة، والجدل في ذات الله وصفاته، وفي القضاء والقدر، والجنة والنار.

فانقسم الناس وتعددت الفرق، وكثر النقاش والجدل فيما ينفع وما لا ينفع، وما يمكن إدراكه عقلا وما لا يمكن، حتى صار الجدل هدفا بعد أن كان وسيلة، فكان أن نشأ علم جديد، يستهدف

المناقشة والمنافحة عن الدين، وهو (علم الكلام)، لكنه ارتبط بقواعد وأصول كانت مستمدة غالبا من المنطق اليوناني، مما جعله يغترف من هنا وهناك، تخللته أمور كثيرة ليست ضرورية ولا مجدية في الدفاع عن الاسلام، مما حمل بعض أعلام الإسلام: كالشافعي وأبي يوسف وابن حنبل والغزالي وابن تيمية إلى أن يبتعدوا عنه ويدعو الأمة للعودة إلى المنابع الأصلية للثقافة الإسلامية، من كتاب الله وسنة رسوله، ضاربين المثل بحياة الصحابة في هذا المقام، وإن كان لكل منهجه في المجابهة. فالإمام أحمد وقف في وجه رئاسة الدولة فتحمل منها ما تحمل، حتى كاد يدفع حياته ثمنا لصموده، أما الغزالي وهو الخبير بأساليب علماء الكلام والجدل، فقد فضح قصور هذا العلم عن أداء الغرض، وعجزه عن توضيح الحقائق التي أثارها، فكان لما كتب أطيب الأثر وأنفعه، أما الإمام ابن تيمية فقد طرح الكلام جانبا ليستبدله بالكتاب والسنة كأساس للوصول إلى نفس الأهداف.

٧- ثم جاء دور الفلسفة اليونانية حيث ابتدأ المسلمون من أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي بترجمة الكتب الفلسفية اليونانية، ككتب أفلاطون وأرسطو وأمثالها وقد كانت هذه الكتب وما فيها جديدة على المسلمين، فأعجبوا بها وزاد من شرورها أنها أصبحت بدعة المثقفين، وقد تسربت حتى وصلت إلى بعض الخلفاء العباسيين، وكان من أعلامها الفارابي وابن سيناء وابن

طفيل وأمثالهم. والملاحظ أن الثقافة اليونانية تختلف في نظرتها للكون والحياة مع الاسلام، فهي غير مرتبطة بالله والانبياء، حتى المثاليين منهم قد كونوا لهم تصورا خاصا عن الله وصفاته من اجتهادهم، وهم لا يؤمنون بالحساب أو الثواب، وكانت نظرتهم للأشياء في الغالب مادية حسمية، لهذا كان أمراً في غاية الخطورة أن تحتل هذه الفلسفة مكان الصدارة في مجتمع اسلامي، وكان مما زاد الخطر أن بعض الفلاسفة نقلوا من هذه الفلسفة ما وجدوه كما هو، وزادوا بأن تبنوها كما هي من غير نقد أو حذف أو غيره، لذلك كان رد الفعل تجاهها عنيفا، فانبرى لها أمثال الإمامين الغزالي وابن تيمية، فكتبوا عدة كتب، كشفت عن كل معايب هذه الفلسفة، كما كشفت عن اتجاهاتها وقصورها.

٨- ثم جاء دور الغزو العسكري والحربي فكانت حروب التتار والمغول، ولكن قوة الإسلام احتوت المنتصرين، وكانت أكبر مفارقة أن يعتنق المنتصر دين المغلوب، دون العكس.

ثم جاء دور الصليبيين وغزوهم البلاد الإسلامية، وكان من ثمرة ذلك نشر الخوف والهلع والموت والدمار، ولكن المسلمين ما لبثوا أن أعادوا توحيد صفوفهم، وتجديد الثقة بدينهم وحضارتهم، حتى قذفوا بالغزاة الصليبيين وراء البحار.

٩- ثم نهضت أوروبا وراحت تفتش عن مستعمرات لها، فكانت

بلاد الاسلام مطمع الانظار، لأكثر من سبب، وأولها الحقد الصليبي، ومخافة أن تعود للمسلمين قوتهم، فيتجهون لأوروبا فاتحين، بعد أن طردوا منذ سنين، كما أن البلاد الاسلامية ذات موقع جغرافي جيد، إضافة إلى مواردها الطبيعية، لذلك كان التحدي الجديد من أخطر التحديات، لأنه مدعوم بالقوى المادية الهائلة، والأفكار والقيم التي لا تريد أن يكون الجندي وحده في ميدان الإستعمار، بل معه كل مستلزمات الحياة من عدة وثقافة وقيم.

وكأنها بذلك تستدرك ما فاتها في الغزوات الصليبية، حيث اعتمدت على القوة وحدها، فلما تهيأ للمسلمين القوة اللازمة اكتسحوا الصليبيين وقذفوا بهم بعيداً، فلم يبق لهم أثر بعد ذلك.

وما تواجهه الثقافة الإسلامية والإسلام من تحديات من الحضارة الغربية، يفوق كل ما جابهه الإسلام في السابق، والخطأ كل الخطأ أن نحاول رد هذه التحديات بالاساليب القديمة التي رد فيها علماء الكلام، أو الفرق أو الفلسفة اليونانية، فتلك مرحلة ذهبت وولت، وهي تعيش في الكتب لا في عقول البشر اليوم.

لذا لا يصح مطلقاً الوقوف عند موضوعات ماتت ولم تعد تشغل بال أحد، ولا عند أسلوب كان بالأمس ناجحا، وهو اليوم لم يعد معروفا.

يقول الاستاذ المويكري (إن الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديما، قد فقدت أهميتها وقيمتها، وانقرضت الفرق التي كانت تثيرها وتتشبث بها، وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها إضاعة للوقت جهادا في غير عدو وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته، وقد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر، لم تكن تخطر على بال، وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة، ولا يمكن اشباع الرد عليها واقناع الخصم بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط، وإن زعم زاعم، والسبب في ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفهم الخصم إلا إذا عرف ما يؤدي إليه الاعتراض وعرف الدوافع)[1]. وهكذا يحدد الاستاذ المويكري التحديات التي نواجهها اليوم، ويسحب الغطاء على المسائل القديمة، التي صارت تراثا في باطن الكتب ليس إلا، إن الخطر الغربي اليوم خطر ماحق، وقد استفحل منذ القرن (التاسع عشر) وما يزال في ازدياد، وقد سلك طريقين كما قدمناهما: الغزو المسلح، الذي سقطت على أثره ديار الإسلام مستعمرة، والغزو الفكري الثقافي، ولئن أفلحنا إلى حد كبير في دفع الغزو المسلح، فان الغزو الفكري قد احتل العقول والقلوب، وسيطر على الافئدة والشعور، وهو غزو لا يشعر به المغزو، على النقيض من الغزو العسكري، الذي يثير الأمة ويشعل الحماس.

---

(١) معالم الثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ٩٦.

أما الغزو الفكري فهو يقتل الشخصية والاستقلال، ومن ثم يصبح الفرد كالخروف الذي يجري وراء الذئب، ولا يدري أنه يركض إلى الموت، لقد كان خطر الغزو الفكري الغربي على الإسلام متمثلا في:

(أ) طبيعة الثقافة الغربية، والوسائل التي استعملت لذلك، فالمدارس والكتب والمجلات والإذاعات والسينما من جانب، مع إغراء شديد لكل متشبع بالثقافة الغربية، بأن يرتقي أخطر المناصب، ويتولى أكبر المهام، ويعيش في مجتمعه سيداً مطاعاً مرفها.

وعلى النقيض من ذلك فقد أغلق الغرب- وهو المتسلط على مقدراتنا- جميع الأبواب في وجه كل مسلم معتز بدينه، وشخصيته وأمته.

وزاد الطين بلة أن أوروبا كانت خارجة لتوها من معركة قاسية، مع الكنيسة وجمودها هو السبب، لذلك كان رد الفعل ثورة عارمة ضد الكنيسة ورجالها وسلطتها، فكانت نهضة أوروبا نهضة حاقدة على الدين والكنيسة، ومن هنا تبنت الموقف العدائي تجاه الدين.. ففصلته عن الدولة، كما شاع الالحاد في كثير مما أنتجه المفكرون، من علوم وآداب وفلسفات، فراحت مبادىء النفعية والتعصب للوطن أو الجنس أو القومية تعظم. يقول أحد أبناء هذه الحضارة: (..وقد كان البلاء الأكبر في حضارة اليونان

والرومان قديما وفي حضارة الغرب الحديثة، هو في سيطرة المادة في غاياتها وأهدافها، ومن هنا نشأ الفساد والحروب والخصومات، إن الرجل العادي في أوروبا ديمقراطيا كان أم فاشيا، رأسماليا أم اشتراكيا، عاملا أم رجلا فكريا، إنما يعرف دينا واحداً، هو عبادة الرقي المادي، والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة إلا أن يجعلها الإنسان حرة طليقة من قيود الطبيعة، وتتجه لهذا النهم للقوة والشره للذة النتيجة اللازمة، ظهور طوائف متنافرة مدججة بالسلاح والاستعدادات الحربية، مستعدة لإبادة بعضها إذا تصادمت أهدافها ومصالحها، أما في الجانب الحضاري... فنتيجتها ظهور طراز من الإنسان يعتقد الفضيلة في العقائد والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لا غير، ليس في هذه الحضارة ولا في نظامها الفكري موقع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة، ولا تشعر إليه بحاجة[1].

(ب)لم تكتفِ الحضارة الغربية بما جندت من إمكانيات لنشرها، وتثبيت دعائمها، حتى شنت هجوما كاسحا على الإسلام، مجندة لجمهرة كبيرة من رجالها، مع بعض الذين اكتسبتهم الى صفها، من أبناء المسلمين للكتابة ضد الاسلام، وطمس معالمه، وتشويه مبادئه، حتى كان إلى

---

(١) معالم الثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ٩٨. والاسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد ص ١٤٧.

عهد قريب، لا يجد من يريد الاطلاع على الاسلام خارج البلاد الاسلامية، غير هذه الكتب، المتحاملة على الاسلام ونبيه، وكتابه، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل راحوا يبثون الحضارات القديمة، ليبعثوها مجدداً، ومن هنا حاولوا إحياء الفرعونية والفينيقية والبابلية، على حساب الإسلام. وثمة أمر آخر جدير بالاهتمام، وهو أن هذا التعصب هو ضد الاسلام فقط، أما الديانات الأخرى فقد درست دراسة محايدة، ومن غير تعصب، أما الاسلام فهو الذي تكالبت عليه أوروبا، وحاولت هدمه في نفوس أبنائه، وتشويهه في نظر غيرهم، حتى يحجب عن العالم، ويمكن أن نعتبر من التحديات الأديان عموما، والإسلام على وجه الخصوص ما يسوقه الملحدون والمستشرقون من شبهات منها:

الشبهات

١ - إن الكون مرتبط بقوانين ثابتة تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية، وإن كل ما يحدث في الكون خاضع لقانون معلوم، أسموه (قانون الطبيعة)[١]. ويلخص هذا هكسلي بقوله: (إذا

(١) الإسلام يتحدى لوحيد الدين ص ٣٤

كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة)[1].

٢- يرى علماء النفس أن الدين نتاج اللاشعور الإنساني، وليس انكشافا لواقع خارجي، ويرى علم النفس الحديث، أن العقل الانساني مركب من شيئين هما:

(أ) الشعور: وهو مركز الأفكار التي تخطر على قلوبنا في ظروف عامة.

(ب) اللاشعور: وهو مخزن الأفكار التي مرت بنا ونسيناها، ولا تظهر إلا في أحوال غير عادية، كالجنون والهستريا، وهذا القسم الثاني أكبر بكثير من الأول.

٣- ان القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية، أحاطت بالانسان، فلم يكن في استطاعته أن يفلت من السيول والأعاصير، فأوجد (قوى فرضية) يستغيث لتنقذه من البلايا النازلة، وهكذا ظهرت الحاجة إلى شيء يجتمع الناس حوله ولا يتفرقون، فاستغل اسم الإله الذي تفوق قوته قوة الإنسان، ويهرع الجميع إلى رضاه.[2].

وقال الشيوعيون: بأن الدين خدعة تاريخية، وهو من اختراع المستغلين. يقول لينين: (إننا لا نؤمن بالإله، ونحن نعرف كل

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦.

المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم، إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية، التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة، لا تتفق مع أفكارنا الطبقية، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال، لصالح الاستعمار والاقطاع ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتاري، فبدء جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتاريا)[1].

هذا ملخص لأقوال المعارضين للدين وقد ذكرها وحيد الدين ورد عليها رداً علمياً مركزاً، معتمداً على أقوال العلماء، وهذه اجابته باختصار[2].

١ - القضية الأولى:

إن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيراً له، لأن ما كشفت عنه ليس بيانا للدين وأسبابه، إذ الدين يبين لنا الاسباب والدوافع الحقيقية، التي وراء الكون، وما كشف الآن هو الهيكل الظاهر للكون، إن مهمة العلم الإجابة عن ما هذا؟.

ولكن الدين يجيب عن لماذا؟ مثال ذلك أن الغذاء يصير جزءاً من البدن، وكانت العملية غامضة، ثم أصبحت بالمشاهدة تفاعلا

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٨.

(٢) الاسلام يتحدى ص ٤١.

كيميائيا، ولكن هذه المعرفة والمشاهدة هل أبطلت وجود الله؟.

ما هي القوة التي أخضعت العناصر الكيميائية لتصبح تفاعلا مفيداً؟ إن الغذاء بعد دخوله جسم الإنسان يمر بمراحل كثيرة، خلال نظام دقيق، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش لمحض المصادفة لذا وجب علينا أن نؤمن بأنه خلق ذلك قدرة عاقلة مسيطرة، وحمرة الدم تتأثر من الخلايا الحمراء الصغيرة التي تحتوي على الهيموجلوبين، الذي يتأثر بالأوكسجين فيكون اللون الأحمر، ومصدر هذه الخلايا الكبد، وهذه العملية مرتبطة ببعضها وفق قانون هو قانون الطبيعة، وهذا أمر يعرفه الأطباء جيداً، ولكن الذي لا يعرفه الطب، لماذا يحدث ذلك للكائنات المختلفة من طيور وسمك وبشر، لأن هذا خارج اختصاص العلم الذي يتكلم عادة عما يحدث، ويعجز عن الإجابة عن سبب الحدوث، وربما كان أوضح من هذا أن تقول: إننا إذا رأينا سيارة تشتغل، ثم أطلعنا على شرح مفصل لعملها فقد تدرك ذلك جيداً، فهذه طبيعتها، ولكن هل يوصلنا ذلك إلى معرفة مخترعها، وجنسيته وصفاته، كذلك الطبيعة تعلمنا كيف، ولكن الدين يجيبنا عادة، لماذا كان كذا؟.

وبينما تكشف الطبيعة عن نفسها وخصائصها، يكشف الدين عمن خلقها وأوجدها...، ومن الحقائق الطبيعية أن الأرض تميل عن محورها بزاوية ٢٣ درجة، الأمر الذي تنشأ عنه المواسم والفصول، ويترتب عليه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة

والسكنى، ولو لم يكن هذا الميلان، إذن لغمر الظلام القطبي طوال العام، ولبقي كل بلد أو بقعة في الأرض كما هو، من حيث المناخ، وربما لم يبق على الأرض غير جبال الثلج والصحراء فالطبيعة كشفت عن هذا الميلان، والإنسان أدرك فوائده وجدواه، لكن لم يكشف هو لماذا كان هذا الميلان بهذه الدرجة؟.

ومن القوانين الطبيعية، إن الاقطاب المختلفة في المغناطيس تتجاذب أما المتشابهة فتتنافر، وقد كشف الإنسان ذلك واستفاد منه، ولكن الذي لم يكشف عنه، لماذا يحدث ذلك؟.

كذلك قانون الجاذبية عرفه الإنسان جيداً، ولكن بآثاره، أما ما هي الجاذبية، وكيف صارت، ولماذا صارت، ولماذا لم يكن بدل الجذب الدفع مثلا؟ فهذا ما لا تكشف عنه الطبيعة.

شبهة:

قد يقال لنا أنكم تستعملون القياس للتوصل من المخلوقات إلى الخالق، وليس لديكم شيء تجريبي تفعلونه.

والجواب:

إن القياس ليس باطلا لمجرد أنه قياس، كما ان التجربة لا تعد حقيقة لمجرد أنها شوهدت، فإمكان الصحة والبطلان واردان على الإثنين، ولنضرب مثلا[1]: فان الناس قديما كانوا يصنعون السفن

(١) الاسلام يتحدى ص ٦٢.

من الخشب لإعتقادهم أن الماء لا يحمل إلا ما هو أخف منه وزنا، وحين قال البعض: إن السفن إذا صنعت من الحديد سوف تطفو كالخشب، أنكر الناس ذلك، ثم جاء أحدهم بتجـربة، بأن ألقى بنعل من حديد في حوض ماء فغطست، فكان هذا العمل تجربة تبرهن على الفساد، بينما كانت تجربة باطلة، لأنه لو ألقى بدلها بقدر أو طبق حديد، لحصل على نتيجة أخرى، وفي بداية القرن العشرين حين كانت التلسكوبات ضعيفة، وشاهد العلماء أجراما كالنور في السماء، استنبطوا أنها سحب من البخار والغاز، ولكن حين تحسنت صناعة التلسكوبات، وشوهدت هذه السحب من جديد، ثبت أنها أجرام كثيرة مضيئة، ونظراً لكثرتها شوهدت كالسحب لبعدها الهائل.

بل إن بعض النجوم استطعنا أن نحدد بعدها عن الأرض، ولو لم نرها، مستفيدين من أشعتها، وبطريقة حسابية لا تجريبية، حدد مكانها وبعدها، يقول أحد العلماء: (إن الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض، لا تشتمل على شيء غير معادلة للرموز التي تحتوي مجرات لا سبيل إلى تفسيرها[1]، ويقول آخر إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير قليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر؟.

وهناك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق

(١) الاسلام يتحدى ص ٦٤.

فكري نبتديء به بواسطة حقائق معلومة، حتى ننتهي بنظرية: أن الشيء الفلاني يوجد هنا، ولم نشاهده مطلقا[١].

وهكذا لا يكون القياس باطلا بنفسه، كما لا تكون التجربة صحيحة بنفسها، بل الكل عرضة للصحة والبطلان، بحسب الاستعمال.

يقول وحيد الدين معلقا: (وبهذا لا ينبغي القول بأن الدين هو الإيمان بالغيب) وبأن العلم هو الإيمان بالملاحظة العلمية، فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الإيمان بالغيب، غير أن دائرة الدين الحقيقية هي دائرة تعيين حقائق الأمور نهائيا وأصليا، أما العلم فيقتصر بحثه عن المظاهر الأولية والخارجية فحين يدخل العلم ميدان تعيين الأمور تعيينا حقيقيا ونهائيا، وميدان الدين الحقيقي، فإنه يتبع نفس طريق الإيمان بالغيب الذي يهتم به الدين، ولا بد من هذا السلوك في الميدان الثاني[٢].

٢ - القضية الثانية:

وهي أن الدين وليد تراكم اللاشعور وتجمعه في النفس.

والجواب:[٣] إن اللاشعور الإنساني علميا فراغ في أساسه، لا شيء فيه قبل أن يولد الإنسان، وإنما يستقر به عن طريق الشعور.

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٦٤.
(٢) الاسلام يتحدى ص ٦٨.
(٣) الاسلام يتحدى ص ٤٥.

فاللاشعور إذن مخزن للمعلومات والمشاهدات التي طرأت على حياة الإنسان، سواء تكررت أم لا، لكن الشيء المؤكد أن اللاشعور لا يختزن حقائق لم يعلمها، أو يشاهدها، أو يطلع عليها.

والدين الذي جاء على لسان الأنبياء، يشتمل على حقائق أبدية، لم تخطر على بال أحد من الناس، أو توقع أشياء تقع في المستقبل، فلو كان اللاشعور مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتي الأنبياء بما جاءوا به؟، خصوصا وأن الأنبياء اشتملت دياناتهم على مختلف العلوم، من التاريخ إلى الطبيعة، إلى الفلك، وعلم الحياة، والإنسان، والسياسة، والاجتماع، وغير ذلك.

ونحن نجد اليوم في العلم الواحد يتناقض أصحابه بينهم، وعلماء التاريخ يشرقون ويغربون، وعلماء اليوم يبطلون ما كان ثابتا بالأمس، ونظرية كذا في الإجتماع، مثلا، تتصدى لنظرية سابقة أو معاصرة، ولكن الأنبياء لم يحدث بينهم هذا، خصوصا في أمهات القضايا.

والغريب في أمر الديانات أنها تأتي دوما لإصلاح ما فسد من أمر الناس، فتأتي بعقائد وأفكار غريبة عن المجتمع ولا يقرها، وما من نبي إلا وقد عانى من قومه المصاعب، أو عرض نفسه للموت، حتى يحمل قومه على ما جاء به، فمن أين أتى بهذه الأفكار، وهي غير معروفة لدى شعبه، وكيف دخلت الى اللاشعور، وهي غير موجودة ولا معروفة؟.

ولعل أقرب دليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عدة أسئلة، منها سؤال عن الروح، وآخر عن ذي القرنين، وثالث عن أصحاب الكهف، وهذه الأسئلة ليس لدى العرب في زمن الرسالة إجابة عنها، ثم لما وعد بالإجابة، وانتظر الوحي، فأبطأ عنه، وقع عليه السلام بأكبر إشكال، وحيث قطع وعداً بالإجابة ولم يتمكن من الإيفاء، مما أحرجه بالغ الحرج، فإن كان يعلم بالأجوبة فكان المقتضى رد الجواب فوراً.

والأمر الآخر: إنه عليه السلام طعن في زوجته عائشة، واتهمت في شرفها، فأحرجه ذلك أيما إحراج، ولكنه صبر على ذلك، حتى جاءه الوحي بتكذيب الخبر جملة وتفصيلا، فلو أن ذلك بإمكان الرسول صلى الله عليه وسلم فعله، فقد كان من مصلحته أن يفعله حالا، أو بعد يوم أو اثنين، ولا يترك ذلك طويلا، ولما كان بحاجة إلى استشارة بعض الصحابة فيما يفعل.

بل إن القرآن قد حوى عتباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض تصرفات قام بها، كما جرى ذلك في أسرى بدر، وما فعله مع (ابن ام مكتوم) فنزلت سورة (عبس) ولو كان هذا من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، لكان في غنى، لأنه ليس من المعقول أن يكلف نفسه كشف تصرفات سبق أن قام بها ونقدها.

كما أن القرآنّ حوى حديثاً عن الكون وتكوينه، وعن قضايا علمية لم تكن معروفة في ذلك الوقت، لا في دنيا العرب ولا غيرهم.

كما أنه حرم أشياء كان العرب يعكفون عليها، ابتداء من عبادة الأصنام، حتى شرب المسكرات ووأد البنات، وعلى العكس ربما أمر بأشياء لم تكن مستساغة، كالزواج من امرأة من تبناه، فقد كانت العرب تهرب من ذلك، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تباطأ في ذلك، فجاء القرآن يكشف أنه قد كلف بذلك، حتى تسقط هذه العادة، مع ما في ذلك من حرج كان رسول الله عليه السلام في غنى عنه.

٣- القضية الثالثة:

إن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية، وهؤلاء لا يفرقون بين دين ودين، ولا بين دين سماوي وآخر غير سماوي، وعندهم أن الإنسان هو خالق الديانات وصانعها، أما الشيوعية فتزعم أن الاحوال الاقتصادية هي التي تقوم ببناء الانسانية وتكميلها، ولهذا كان العصر الذي وجد فيه الدين هو عصر الاقطاع والرأسمالية، وسموه عصر اللصوص والانتهازية، والأفكار الدينية التي وجدت في هذا العصر تحمل نفس الطابع الانتهازي، وهذا يعني أن الإنسان لا شخصية له، فهو يصاغ في مجتمعه كالصابون في مصنعه، وليس باستطاعته إيجاد أفكار جديدة، إنما هو ينطلق مفكراً على النهج الذي سمحت له به حياته الاقتصادية.[١]

---

(١) المرجع السابق.

ويمكن هنا أن نسأل إذا كان الإنسان وليد ظروفه الإقتصادية، وأن أفكاره تابعة للنهج الذي سمحت له به حياته الإقتصادية فكيف تولد في المجتمعات الرأسمالية أناس يفكرون بالشيوعية، ويعملون لها؟ وينشرون أفكارهم؟ وإذا استعملنا نفس القياس والتفكير يلزمنا مثلا أن نقول أن النظام الرأسمالي لا ينتج إلا أفكاراً مماثلة، وكذا الشيوعي وهكذا، إذن فمن أين تأتي الأفكار المخالفة؟ وكيف تحدث التغيرات الكبيرة؟ واذا صح أن الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة للنظام الاقتصادي لعصرها؟

ولقد سادت الماركسية روسيا نصف قرن، ادعت روسيا خلال ذلك أن أحوال البلاد قد تغيرت كليا، فلا استغلال ولا مخادعة، ولكن عدالة مطلقة، ثم مات (ستالين) واذا بالقادة الروس لا غيرهم يقولون: بأن الظلم والفساد والتسلط والدكتاتورية كانت طابع هذا العهد، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام في البلاد الاستعمارية، أما الشخصية الثانية بعد ستالين (وزير داخليته) فاتهم بالخيانة وأعدم.

وهذا دليل على أن الإنسان ليس تابعا للنظام الإقتصادي، وإلا لوجب أن يذهب الإستغلال في نظام ثار على الاستغلال كما يدعي.

إن الإنسان هو الذي ينتج الأفكار، وهو يغير الأوضاع، وقد يقبلها وليس العكس، ولنسأل هؤلاء كيف يفسرون قيام الإسلام

من وسط مجتمع جاهلي ممزق ليكون دولة، لها كيانها ونظامها وفاعليتها؟.

ولقد بقي العرب قرونا عدة لم يتغيروا هذا التغيير، إلا عندما جاء الإسلام، وحين كانت تضعف علاقاتهم بالإسلام تتردى أحوالهم وتنتكس، وكيف أوجد من مجتمع قريش الذي يعبد الأصنام الكثيرة والتي كان في الكعبة منها أكثر من (٣٠٠)، فكرة الإله الواحد.

وكيف انتج المجتمع القبلي المتصارع مجتمعا واحدا له دولة واحدة؟ وكيف حرم وأباح ما أباح؟.

ولقد كان القرشي يرفع نفسه فوق سائر العرب، أما غير العرب فأسماهم أعاجم، فمن أين جاء الإسلام بالمساواة بين المسلمين، والمفاضلة بالتقوى؟ لقد عرف العرب الربا وتعاملوا به، فماذا جد من ظروف اقتصادية حتى حرمه الإسلام؟.

وأخيرا إذا كانت الأوضاع الاقتصادية هي التي تنشىء الأفكار وتصنعها، فلماذا لا تبيح الدول الاشتراكية لأفرادها الحرية ليقولوا ما يشاءون، لأن الظروف الاقتصادية المحكمة فيهم كلها من نمط معين، وفي خدمة الدولة، فمن أين يأتي الخوف؟.

وأخيراً لقد مضى على الحكم الروسي البلشفي نصف قرن، وهو يدعو للشيوعية، ويحارب الأديان، فهل يستطيع عمل استفتاء في نوع النظام الذي يرتضيه الشعب الروسي؟.

هـذا أهم التحديات الفكرية، أما ما أثاره المستشرقون فسيأتي، حين البحث عنهم فلنؤجله الى مكانه.

التيارات الفكرية الغربية:

أولا: العلمانية:

ويقصد بها فصل الدين عن الدولة وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية: إن مصطلح العلمانية ظهر في القرن التاسع عشر، كمصطلح يعبر عن وجهة نظر المفكرين المنكرين لوجود الله تعالى، أو الذين يفصلون بين وجود الله وتأثيره في الحياة(١).

وللغرب تعريف خاص للدين ومهماته، وللدولة مثل ذلك، فالدين علاقة بين العبد وربه ومهمته التوجيه الروحي للإفراد(٢).

أما الدولة فقصدوا بها الإدارة التنفيذية التي من مهمتها تنظيم العلاقات بين الأفراد(٣).

وأساس هذا التحديد ما ورد في الديانة النصرانية (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله).

إلا أن هذا الفصل في حياة النصارى، لم يكن دائماً بل كانت الكنيسة إلى عهد قريب، تملك كل شيء في حياة الأفراد، كما تملك

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ٢/ ٦٦٧.

(٢) الفكر الاسلامي الحديث ص ٢٥٠ للدكتور البهي.

(٣) الفكر الاسلامي الحديث ص ٢٥١.

تنصيب الحكام وعزلهم، وقد استبدت الكنيسة بالأمر، فحدث بينهما وبين شعوبها صراع مرير، انتهى بالفصل بين السلطتين الروحية (الكنيسة) والمدنية (الدولة)، بحيث صار لكلٍ اختصاصه، فعادت الأمور الروحية والقلبية والايمانية من نصيب الكنيسة، أما السلطة السياسية والتنظيمية فمن مهمات الدولة، ونتيجة لشيوع المثل الغربية كان مما وصل الى شرقنا الإسلامي، هذه الثنائية، التي لا يعرفها ولا يقرها الاسلام لأنه ينظم العلاقات بين الافراد، كما يحدد طرق إصلاح النفس، وما عليها من واجبات دينية أو مدنية أو غيرها.

وقد حاول الغرب فرض فكرة العلمانية على الاسلام إلا أنه لا يفعل ذلك تجاه اليهودية وهي تمزج بين السلطتين كما أن اسرائيل كدولة ليس لها دستور غير التوراة، لكن الغرب لا يذكر ذلك بالنقد. وكان نقد الغرب للاسلام يسير باتجاهين:

١- إن الإسلام ليس بدين لأنه يتكلم عن علاقات أفراده والتشريعات وهذه مهمة الدولة فالإسلام ليس بدين سماوي اذن.

٢- إن الإسلام كدين ليس له علاقة بنظم الحياة بل ذلك من مهمات الدولة وعليه كالمسيحية أن يقف عند حدود القضايا الروحية والايمان ويدع ما سوى ذلك.

ومعلوم أن هذا الأمر إن سقط فانه لن يبقى من الإسلام سوى

العبادات وهي جزء يسير، كما أن هذا إن حصل فسوف يؤدي إلى الغاء شخصية الجماعة الاسلامية[1].

وعلمانية الدولة صارت وسيلة للتقرب للغرب وحضارته، لذا نرى الكثير من الحركات والأحزاب تتبناها، أملا أن تكون جسر لقاء مع السادة الأقوياء وبطاقة تزكية لهم.

ونختم البحث بقول الدكتور البهي: ومع أن (مثنوية) الإنسان يقصد (ثنائيته) بين الدين من جهة والدولة من جهة أخرى، التي قام عليها الفصل بين الدين والدولة، تعتبر فكرة غير سليمة من الوجهة العلمية، وغير عملية من الوجهة التطبيقية، فإن دعاة التجديد في الفكر الإسلامي الحديث لم يزالوا يرون الوحدة في الإنسان وفي القيادة تخلفا، لأنها من أصول الاسلام[1].

وهذا يتطلب للمسلمين وحدهم إعلان العلمانية، أما اليهود وسائر أصحاب الديانات الأخرى فلا يتعرض لهم أحد بذكر أو نقد.

إن العلمانية قد حطمت تركيا، وانشأت جيلا لا يعرف ما يريد، تقتله الحيرة وتفسد حياته الثنائية بين الدين والدولة، فلماذا هذا الالحاح على العلمانية؟ ولمصلحة من؟.

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث ١٥٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨ ولقد أفرد الدكتور البهي لهذا الحديث البحث ٤٢٠ صفحة من ٢٤٩- ٢٩٠ وقد أبدع في ذلك كل الابداع.

ثانيا: الوجودية:[1]

يعتبر الكاتب الدنماركي (كاير كغارد) أول من استعمل كلمة الوجودية سنة (١٨١٣ م) وعنه أخذت.

وقد كان هذا الكاتب شديد التدين، ومن آرائه: إن الإنسان يختار طريقه أمام الله لكنه يجهل إن كان في ذلك خلاصه أم فناؤه، ثم ظهرت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ببضع سنوات، وانتشرت في فرنسا وايطاليا حتى إذا جاءت الحرب الثانية إزداد انتشارها، ولا سيما في الاوساط الأكاديمية، وكثر الكلام حولها، وعلى الاخص في الصحف الناشئة.

والوجودية مأخوذة من (الوجود) والمقصود الوجود البشري، وتستعمل عادة للتأكيد على أن الإنسان فريد في وجوده وأنه صاحب قابلية وذو تفكير واختيار، وأنه حر، وبسبب حريته، فهو يقاسي ويتألم، وأن مستقبله متوقف جزئيا على حرية اختياره، وبما أن مجال الاختيار له محدود بحكم الواقع، فان هذه الحرية صارت منبعا لآلامه، لا ندري ولا نعلم ماذا سيحدث في المستقبل.

ويقول (كاير كغارد) حيث أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف مكانته أو واجبه، لذلك ينبغي أن تكون للفرد الشجاعة أن يختار أحسن ما يمكن لنفسه وحريته.

---

(١) البحث أخذ بتصرف عن دائرة المعارف البريطانية ٨/ ٩٦٤. وسقوط الحضارة لكولى ولسن ص: ٢٩٠ ط ٢

والملاحظ أن بداية الوجوديين أو الوجودية كانت مرتبطة بالدين، لكنها مؤخراً ابتعدت عن الدين، وإن كان ما يزال في صفوفها بعض المتدينين.

وحيث أن الوجودية عبارة عن ميول أو حالات أكثر منها فلسفة، فإن لها بعض المبادىء التي تميزها، ومن ذلك الإحتجاج ضد الآراء السائدة التي تعتبر الإنسان لعبة بيد القوى أو الدوافع، التي تقرر سير الأمور الطبيعية، كما أن الوجوديين يعتبرون حرية الانسان وأهميته غاية في نفسها، لذلك فمن واجبهم إبراز ذلك والذود عنه.

وقد نشر أكثر الوجوديين أفكارهم على شكل روايات وتمثيليات، أكثر ما نشروها بالاسلوب العلمي.

ومن الوجوديين الذين اشتهروا مؤخراً (سارتر) اليهودي الفرنسي المولود سنة ١٩٠٥م، وقد ألف عدة كتب وروايات في الوجودية واستعمل، آراءه للتمييز بين الناس اللاشعوريين، والذين ينحصر وجودهم في أنفسهم فقط، وبين الشعوريين الذين يعملون ويختارون لمصلحة أنفسهم، وهم بالضرورة أحرار.

وتتسم مؤلفاته بالالحاد وعدم الإيمان بالله، وقد زار بعض البلاد العربية قبل حرب حزيران وأدلى بتصريحات كان من مفهومها عدم إيمانه ببعض النظم الاجتماعية والاخلاقية، وخاصة مما يتعلق منها بالجنس، كما أنه كشف بعد حزيران عن تعضيده للصهيونية، وميله الشديد إليها ضد العرب.

ومن رجال الوجودية القس (كبرييل مارسيل) لكنه يعتقد بحكم صفته الدينية، أن لا تناقض بين الوجودية والنصرانية، ويمكننا أن نقول: أن الوجودية ثمرة من ثمار الحضارة الأوروبية المادية، التي جعلت الإنسان عبدا لها، فاستخدمته في الحروب أسوأ استخدام، وقست عليه أكبر قسوة، ولذلك لا عجب أن راجت بعد الحربين العالميتين، حيث قاسى الإنسان منهما ما لم تقاسه المخلوقات الأخرى، لذلك كان رد الفعل تمجيد هذا الإنسان، ورفعه إلى المكانة اللائقة به.

كما أنها كفكرة تمثل إلى حد كبير عجز الحضارة المادية الغربية عن منع الأزمات، أو تلافيها أو اختيار المكان المناسب للانسان فيها، ويمكن أن يقال أنها لم تأخذ للآن الشكل العقلي لها بين العقائد والأفكار، وقد يكون من تأثيرها البعيد ظهور جماعة الهيبيز وأمثالها.

ثالثا: التبشير:

وهو الدعوة إلى الديانة النصرانية بمختلف طوائفها، ويرجع النصارى تاريخ التبشير إلى عصور النصرانية ومبتدأ تأسيسها[1]، ولما كان الذي يهمنا هو التبشير في العالم الإسلامي، فان صاحب كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) يذكر أن (ريمون لول) الإسباني هو أول من تولى التبشير، بعد أن فشلت الحروب الصليبية في

(١) الغارة على العالم الاسلامي ص ٢٩ الدار السعودية.

مهمتها، فتعلم اللغة العربية، وجال في البلاد الإسلامية، وناقش العلماء المسلمين في بلاد كثيرة[1]، ومن الدول التي اهتمت بالتبشير هولندا التي كانت تستعمر أندونيسيا، فقد قسمت جاوه إلى مناطق لكل منها كنيسة ومدرسة[2]، ثم تابعتها الدول الأوروبية الأخرى لما لمست من جدوى التبشير ونفعه.

وقد كان التبشير الممهد للاستعمار، لهذا رأينا الدول الغربية على اختلافها تحارب النصرانية في داخل بلادها، وترسل بجيوش المبشرين إلى الخارج، لأنها تستفيد من جهودهم. جاء في كتاب (التبشير والاستعمار) إننا إذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالما ملحداً لا يؤمن بدين، وعالما ماديا لا يعرف للروح معنى، إن أمريكا التي تعبد الحديد والذهب والبترول قد غطت نصف الأرض بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني. وبينما نرى فرنسا دولة علمانية في بلادها، نجدها الدولة التي تحمي رجال الدين في الخارج، إن اليسوعيين المطرودين من فرنسا هم خصوم فرنسا في الداخل، وأصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها.

وكذلك إيطاليا التي ناصبت الكنيسة العداء، وحجزت البابا في الفاتيكان، كانت تبني جميع سياستها على مجهود الرهبان والمبشرين، حتى روسيا السوفياتية التي تدعو في بلادها إلى محاربة

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ص ٢٩ الدار السعودية.

(٢) الغارة على العالم الاسلامي ص ٣٠ الدار السعودية.

الأديان، رأيناها بعد الحرب العالمية الثانية حينما أرادت أن تحقق لنفوذها توسعا إقليميا وسياسيا، وقد تظاهرت بالعطف على رجال الدين، ودعت إلى تجمع مسكوني في موسكو، وحملت إليه المؤتمرين في طائراتها.

وكثيراً ما كان الرجال الانجليز خاصة، يحرضون حكوماتهم على بث المبشرين في العالم، كما نصح الجنرال (هايغ) الحكومة البريطانية أن ترسل مبشرين إلى شبه جزيرة العرب[١].

ويوضح المستر (بلس) دور التبشير والإسلام في أفريقيا فيقول: (إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقيا، والمسلم فقط، هو العدو اللدود لنا)[٢].

وليس هذا فقط بل ان أوروبا ما تزال تنظر إلى الاسلام كخطر، سبق أن هددها في الماضي وربما هددها في المستقبل[٣]، كما أن الغرب المستعمر يشعر بالقلق الكبير إذا اتحد المسلمون، يقول لورنس براون: (إذا إتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصيروا لعنة على العالم وخطرا، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نفحة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير)[٤].

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ص ٣١- ٣٥.

(٢) الغدد السابق ص ٣٦.

(٣) التبشير والاستعمار ص ٣٦.

(٤) التبشير والاستعمار ص ٣٧.

أما القس سيمون[1] فيحدد دور التبشير بأنه: عامل مهم في كسر شوكة الوحدة الإسلامية، لأنه يسلب الوحدة الإسلامية من عناصر القوة والتمركز، خصوصا وأن الوحدة الإسلامية ستكون ضد الاستعمار الغربي، الذي هو راعي التبشير ومعوله، ومن هنا جاء حذر الحكومة التركية من المبشرين، فراحت تراقبهم مراقبة دقيقة، فقد كان البروتستانت في حماية الانجليز، وأما فرنسا فكانت تحمي المبشرين اليسوعيين، كما عمل الأتراك على الحيلولة بين رجال التبشير وبلاد العرب بشكل خاص، والبلاد الإسلامية بشكل عام، إلا أن المبشرين كانوا يحملون جنسيات أجنبية، ويطلبون الحماية من دولهم[2].

وعندما ضعفت الدولة العثمانية وحصلت الأقليات الأجنبية على امتيازات خاصة بها، فكانت دار الأجنبي تعتبر حرماً لا يمس، واذا اقترف جريمة فيحاكمه قنصله العام، وله حق التجول حيث أراد في تركيا، دون أن يكون للحكومة التركية عليه سلطة[3]، وهذا الوضع خدم التبشير كثيراً.

وحين اشتد ضعف الدولة العثمانية، وراحت الدول الأوروبية تقتطع بعض أطرافها، وحين توالى الاستعمار على العالم الإسلامي،

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٣٧.
(٢) التبشير والاستعمار ص ١١٦.
(٣) التبشير والاستعمار ص ١٣٢.

راح المبشرون يطلبون نصيبهم من هذا النجاح الذي ساهموا فيه، وكانوا طليعة الجيوش الزاحفة.

يقول (رشتر) إن مائة وستين مليونا من مجموع مائتين وخمسين مليونا من المسلمين في حكم الدول النصرانية، فواجب هذه الدول إذن أن تمهد السبيل لتبديل دين هؤلاء الرعايا[1].

والتبشير له جيش قدرته بعض الصحف الغربية بملايين الأفراد بل خصت الكاثوليك لوحدهم[1] بخمسة ملايين استنفرتهم لهذه المهمة موزعين على العالم كله.

أما ما صدر عن التبشير ويصدر من كتب ومجلات، فيكاد لا يحصى، ولقد جاء في كتاب التبشير والإستعمار (لا سبيل إلى إحصاء ما كتبه المبشرون وأنصار المبشرين عن الشرق، ولا عن العرب والإسلام، فان (شترايت ودندنفر) قد أصدرا بين عام ١٩١٦ - ١٩٣١ م سبعة مجلدات ذكرا فيها أسماء المصادر والمراجع التي تدور حول المبشرين وجهودهم، وتسهيل أعمالهم، ثم أن أكثر هذه الكتب مفصلة تفصيلا كبيراً، فإن الرسائل التي كتبها المبشرون من سوريا والشرق الأدنى فقط إلى زملائهم بين عام ١٨٣٠ - ١٨٣٢ م طبعت في ١٣ مجلدا من أصل ٣٨ مجلدا، وفي المؤتمر التبشيري في أدنبره عام ١٩١٠ م صدر تقرير عما يجب أن يهتم به المبشرون كان في (١٠) مجلدات، أما مؤتمر القدس سنة

(١) التبشير والاستعمار ص ١٤٥.

١٩٢٨ م فكان في ٨ مجلدات، أما أعمال مدارس (تبشير الفرنسية في الشرق سنة ١٨٦٩ م فوقعت بـ (١٥٥٠) صفحة[1].

ويمكن من هذا أن نقدر خطر التبشير، كما نقدر دوره الهدام في جسم أمتنا.

ويزيد من خطورته أن يكاد يستولي على تعليم الصغار في أكثر البلاد الإسلامية، كما أن له مراكز في أغلب البلاد الاسلامية، وأنه راح يستر أهله ومشاريعه بعد أن كان يتباهى بها من قبل.

ويمكننا أن نقول: إن الهدف الأول للتبشير هو محاولة جعل المسلمين يتنصرون، لكنهم بعد أن وجدوا صعوبة في ذلك، اتخذوا لهم هدفا أصغر، هو تشكيك المسلمين بالإسلام، ومساعدتهم على الخروج عليه، سواء أصبحوا نصارى أم لم يصبحوا، هذا من الناحية الدينية، أما من الناحية السياسية، فقد كان المبشرون ولا يزالون خدماً للاستعمار الأوروبي، وجواسيس لدوله، كما كانوا ولا يزالون عناصر هدم في وحدة الأمة الإسلامية، وسدا في وجه وحدتها واجتماعها.

رابعا: الاستشراق:

هو العناية بالدراسات والثقافات الشرقية من قبل الغرب دراسة ونقداً، ويرجع تاريخ هذه العناية إلى القرن الثالث عشر

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٢١.

الميلادي[1]. وهناك شبه اتفاق على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة جدية بعد فترة الإصلاح الديني[2]، أما سبب ذلك فإن ما خلفته الحروب الصليبية من آثار وما جاءت به حركة الإصلاح الديني في أوروبا من أفكار، جعلها تضغط على رجال الكنيسة لإعادة النظر في شروحهم الدينية، وقد دفعهم ذلك إلى دراسة العبرانية ثم العربية، وبمرور الزمن اتسعت دائرة الاهتمام حتى شملت ديانات ولغات وثقافات شرقية عدة[3].

ثم جاء إلحاح المبشرين على تنصير المسلمين، فأضاف سببا آخر، لأن الذين يدرسون الثقافة الاسلامية واللغة العربية، هم أقدر من غيرهم على فهم حالة المسلمين ودعوتهم، وقد حاول المبشرون إقناع زعماء الاستعمار بأن النصرانية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق، فعليهم مدها بالعون والقوة، وهنا التقت مصلحة رجال الكنيسة مع أساطين الاستعمار، فتعاونوا خارج بلادهم وتحاربوا داخلها، وكان من نتيجة ذلك ارتباط (الاستشراق بوزارات الخارجية ووزارات المستعمرات)، وكان الكثير منهم موظفين فيها، كما كان هناك أسباب سياسية وتجارية وشخصية، لأن المستشرقين يمكنهم من السفر والإطلاع على ثقافات

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي الطبعة الخامسة للدكتور البهي ص ٥٢٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص ٥٣٣.

العالم القديم، كما اتخذه البعض وسيلة عيش وارتزاق[١].

وقد شارك اليهود في حركة الاستشراق، لأسباب دينية وسياسية، فقد حاولوا جاهدين إثبات تفوق اليهودية على الإسلام من جهة، والتشكيك بمبادىء الاسلام من جهة أخرى، وهم الآن يسيطرون على الدراسات الإسلامية في جامعات أوروبا وأمريكا، سيطرة تكاد تكون تامة.

ومن الناحية السياسية، فقد جعلوا عملهم في خدمة الصهيونية ودولتها.

وكما هدف النصارى إلى اضعاف ارتباط المسلمين بالاسلام، وقتل الثقة به، فقد شاركهم بهذا اليهود أيضاً، يقول الدكتور البهي (وقد تركزت أهداف الاستشراق مع تنوعها، أخيرا في خلق التخاذل الروحي، وإيجاد الشعور بالنقص، في نفوس المسلمين والشرقيين عامة، وحملهم في هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية)[٢].

ويسلك المستشرقون كالمبشرين سبيل عقد المؤتمرات، وإصدار الكتب والمجلات[٣] ومنها:

١- مجلة الشرق الاوسط وطابعها سياسي.

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣٤.
(٢) الفكر الاسلامي الحديث ص ٥٣٤.
(٣) المرجع السابق ص ٥٣٦.

٢- مجلة العالم الاسلامي ويصدرها الأمريكيون، وهي من آخطر المجلات.
٣- مجلة العالم الاسلامي، وتصدر عن المستشرقين الفرنسيين.
٤- دائرة المعارف الإسلامية، وهي أخطر أعمال المستشرقين المعروفة. وقد صدرت بعدة لغات، وحشد لها أكبر عدد من المستشرقين، وهي مرجع لكثير من المسلمين وغيرهم في دراستهم، على ما تحويه من تشويه، وحرب للاسلام، وتعصب ضده.

وقد أثار المستشرقون جملة آراء حول الإسلام وفهمه، وركزوا عليها فيما ألفوا وكتبوا ومن ذلك:

١- بشرية القرآن، وإنه ليس من عند الله، بل هو تعبير عن البيئة العربية، قام به الرسول صلى الله عليه وسلم. والملاحظ أن هذه الأفكار انتقلت لغير المستشرقين، وهذا أمر هام يقصده الاستشراق، ويعمل له بكل جهد وقوة، فإذا كان رأي المستشرق محل شك، فليكن ذلك على لسان أو قلم أحد أبناء المسلمين، ولهذا رأينا شخصا كالدكتور طه حسين يتبنى آراء مثل المستشرق (جب)، وينقلها في كتابه (الشعر الجاهلي)، على أنها من بنات أفكاره، مما أثار عليه الدنيا، حتى صدر في الرد عليه أكثر من (١٠٠) كتاب، لأن القرآن هو معجزة الإسلام، وأداة التحدي التي تحدى

بها الله تعالى البشر، بأن يأتوا بمثله، فإذا أنكرنا ألوهيته وربانيته، فلم يبق من الإسلام شيء.

٢ - إن اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن، وهذه لا تساير حاجات العصر، فيجب أن تعم اللغة العامية، بحيث تصبح لغة الكتابة والتخاطب، ولا تكاد اكثر مؤتمرات المستشرقون تخلو من الإشارة إلى هذه الناحية، واتخاذ قرارات بذلك، حتى كأن اللغة العربية لغتهم الرسمية، وهم أبناؤها، ثم تطورت الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، بدلا عن الحرف العربي، حتى ينشأ جيل المستقبل لا يستطيع أن يقرأ القرآن، ولا التراث العربي، كما هو الحال في تركيا حاليا. وهذا هو الهدف. ونسي هؤلاء أن اليهود أخرجوا العبرية من القبور، ليجعلوها لغة رسمية لدولتهم.

وقد تقدم عبد العزيز فهمي باشا سنة ١٩٤٣ م باقتراح الى المجمع العلمي المصري بذلك، كما تبنى الدعوة بحرارة شخصيات وصحف في لبنان حاليا، كلها مشبوهة.

والعيب والعجز ليس في العربية كلغة، وإنما التقصير في أبنائها.

٣ - إن الإسلام لم يكن مطبقاً بشكل جدي إلا فترة قصيرة جداً في أيامه الأولى[١]، ولكن كلما تطور المجتمع كبرت الفجو

---

(١) معالم الثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان.

بينه وبين الإسلام، بسبب رفض الإسلام للتطور.

ونحن نسأل هؤلاء عن طبيعة المجتمع الأموي والعباسي والعثماني، هل كانت تطبق الإسلام أم كان لها عقائد أخرى، وحتى اليوم فان الدول ذات الشعب المسلم تأخذ من الإسلام ولا تستغني عنه.

٤- إن الحياة متطورة لا مفر من ذلك، ويترتب على هذا وجوب تطوير المفاهيم الإسلامية، وذلك بالسير وفق المثل الغربية، والتفاعل معها، وإذن فينبغي إصلاح الأنظمة الإسلامية والتشريعات، حتى تتمشى مع الزمن[١]. وهذا الاصلاح المطلوب ليس حبا في المسلمين، بل هو وسيلة لإبعادهم عن الإسلام، وجعلهم يلتزمون بالإسلام اسما وبالمثل الغربية فعلا. ولعل هذه أكبر قضية يواجهها المثقفون المسلمون، لأنهم يحاربون فيما يأخذون وما يتركون، ومنذ أواخر القرن الماضي حتى اليوم، والمسلمون يتأرجحون بين أكثر من اتجاه في ذلك.

٥- إن الاسلام[٢] دين، وهو علاقة بين العبد وربه، أما ما سوى ذلك فيترك للدولة تنظمه، وتفعل فيه ما تشاء، وأشهر من نادى بذلك من المسلمين (علي عبد الرزاق) في كتابه

---

(١) معالم الثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ١٠١.

(٢) الفكر الاسلامي للدكتور البهي ص ٢٤٩.

(الاسلام وأصول الحكم). يقول الدكتور البهي (وكتاب الاسلام وأصول الحكم من كتب التجديد في الفكر الإسلامي الحديث، يعالج أو يعرض دعوى: إن (الاسلام دين لا دولة)، وفي عرضه لهذه الدعوة يعتبر من الدراسات الإسلامية التي عني بها المستشرقون من القساوسة الصليبيين واليهود الحاقدين، مالهم من آراء في هذا الجانب، وما لهذه الدراسة من أصول تواضعوا عليها عند النظر إلى الإسلام، لا نتيجة لبحث نزيه، ولكن انبثاقا عن غرض خاص، وقد اضطر الشيخ علي عبد الرزاق أن ينكر ويجحد: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت له دولة في المدينة، أو كانت له صفة غير الدعوة الدينية، بالمعنى الذي تفهمه أوروبا من الدين، وهذا بلا شك نقل حرفي لعلمانية الدولة في الغرب، حيث تكون السلطة بيد الدولة، ويكون للفرد حرية التدين، بأي دين، أو الكفر والالحاد، وهذا الامر هو محور عمل الغرب وحكوماته والتبشير والاستشراق، وكانت أول ثماره في تركيا على يد مصطفى كمال، والغريب أن هذا النقد لا يوجه إلا إلى الإسلام، دون اليهودية أو غيرها.

٦- ومما أثاره المستشرقون كثيراً من الطعن في وجهات النظر الاسلامية، والعيب فيها، أما الحسنات في نظرهم فيحاولون ردها الى اليهودية، حينا أو النصرانية أو المجوسية، وتلاعبوا بالالفاظ، وحرَّفوا النصوص، حتى أن بعضهم في

محاولة لانكار صفة الأمانة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنه حين لقب بالأمين ليس لصفة الأمانة، بل لأن أمه اسمها (آمنة)، وآخر يقول: إن محمدا لم يتعبد في غار حراء، بل كان يصطاف فيه، كما أثاروا شبهات كثيرة حول الإسلام والرسول الكريم، حتى أن المرحوم السباعي قابل بعض المستشرقين في أوروبا، وخلال الحديث قال: إنه لا يستطيع أن يحترم إنسانا له أكثر من عشر نساء، فرد عليه السباعي ولكنك تحترم شخصا له (٧٠٠) امرأة و (٣٠٠) جارية، وهو يشير بذلك إلى ما جاء في التوراة عن سليمان عليه السلام.

موقفنا من هذه التحديات:

لا شك أن أكبر وأضخم هجمة على الإسلام، هي في هذا القرن، والتحدي الهائل للإسلام والمسلمين، وحيث أن هذا التحدي جاء بعدة صور وأشكال، بحيث كان شاملا لاغلب جوانب الحياة، كما جاء في فترة ضعف وغلبة من جانب المسلمين، لذلك كانت آثاره مخيفة مدمرة، وهي إن لم تصد وتعالج، ربما قضت على المسلمين كأمة، وحصرت فاعلية الإسلام في أضيق نطاق.

لهذا رأينا المسلمين منذ جاءهم هذا الغزو، وهم يحاولون تحديد موقفهم منه، ولكنهم ما زالوا مختلفين في اتجاهاتهم التي يمكن إيجازها بما يلي:

١- الموقف السلبي: ويتمثل في رفض الحضارة الغربية بكل ما انبثق عنها، إلا أن هذا الموقف إضافة إلى أنه أثبت عدم جدواه، لم يكن من الاسلام في شيء، لان الاسلام لا يمنع أصلا اقتباس النافع والمفيد، بشرط أن يكون غير مصطدم بمفاهيمه وعقائده.

٢- التغريب: وخلاصته الأخذ بكل ما جاء عن الغرب، باعتبار الحضارة كلا لا يتجزأ، وهذا موقف الإنسان الذي تجابهه قوة طاغية غازية فيسلم لها، لأنها أكثر من طاقته، وعلى أمل أن يصبح كالغرب في تقدمه الصناعي والحربي مثلا.

وقد كانت تركيا أول تجربة لهذا الإتجاه، فبعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وقيام مصطفى كمال بمحاولته العسكرية لاسترداد استقلال البلاد، وحصوله على تأييد المسلمين في كل مكان، قام بعد ذلك بالاتفاق مع الماسونية العالمية، والدول الغربية، بالغاء الخلافة، وإعلان تركيا دولة علمانية، حتى منع الاذان والقرآن باللغة العربية، وأعلن حربا ليس على الأديان، بل على الإسلام وحده، وعلى المسلمين وحدهم، ومضى في عمله مع تشجيع اليهود والغرب، حتى انشأ دولة لا هي بالشرقية ولا بالغربية، وما أن مضت عدة سنوات حتى تبين أنه لم يستطع فعل شيء، رغم ألوف

---

(١) الثقافة الاسلامية عبد الكريم عثمان ص ١٠٤.

الضحايا التي ذهبت والثورات التي أخمدت، إلا أن يؤثر على مظاهر الشعب، أما ما سوى ذلك فلم ينجح. يقول أحد المؤرخين المعجبين بمصطفى كمال: (وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا، حتى أصدرت الحكومة أمرها إلى بارجة تركية بالبقاء بالبحر الأسود، وأقيمت المحاكم في كل ناحية وصوب، وفي أمكنة مختلفة من البلاد، وأعدم علماء الدين الذين نفخوا في قلوب الناس روح المقاومة، وحماس الدين، واضطروا إلى أن يختفوا عن الأنظار، ولم يستعمل رفقا ومسامحة في مناسبة، وقرر مصطفى كمال تنفيذ المشروع واتمامه، ولم يحفل بالوسائل والطرق التي يستخدمها في هذا الشأن، فيلقي القبض على الناس الذين كانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام، واستهدف في ذلك الأبرياء والمجرمين على حد سواء)[1].

وكان المؤمل أن تكون هذه الخطوة سابقة تاريخية لكافة الأقطار الاسلامية، لولا أنها فشلت في أفغانستان وغيرها، ولاقت من المقاومة فوق كل ما كان يتصور لها.

٢- التوفيق: ويتلخص هذا بمحاولة التوفيق بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وذلك بتقريب مبادىء الإسلام من

---

(١) الثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ١٠٧.

الحضارة الغربية، وكان هذا على حساب الإسلام ومثله، مع الميل إلى تبني المثل الغربية تباعا، والاقتراب منها ما أمكن، وأصحاب هذا الاتجاه يعتقدون بأن المصلحة في هذا التقارب، وأن على المسلمين أن يعيدوا دراسة الإسلام على هذا الأساس، ليتمكنوا من بيان وجهة نظر الإسلام، في كثير من الأمور المستجدة.

وقد فتحت هذه الدعوة أبواب الكتابة والحديث عن الاسلام لمن له علم، أو ليس له، وللمخلص وغير المخلص، حتى صار كل كاتب يصف الاسلام بما يشتهي ويحلو له، وحتى أصبح جامعا لشتى المفارقات والمتناقضات، وهذا الاتجاه ستكون له أخطاره على الاسلام من جهة، وعلى المسلمين من جهة أخرى.

(أ) فهو سيشوش على الإسلام ومفاهيمه، فيدخل فيها ما ليس منها، ومع مرور الزمن، يصبح من الصعوبة فصل الدخيل عن الأصيل، فيدخل الاسلام من القضايا ما يكشف المستقبل عن فساده وضرره، فيتحمل الإسلام وزر ذلك.

(ب) إن هذا الإتجاه سوف يفرق كلمة المسلمين، ويزيدهم إنقساما، لأن كل جماعة ربما اختارت منهجا ووجهة تختلف عن الأخرى، وهذا ما نجد بعضه اليوم في عالمنا

العربي، على وجه الخصوص: فمن داع للاشتراكية الى منكر لها، ومن آخذ للديمقراطية ومن رافض، ومن متبنٍ لتدخل الدولة في جميع المجالات ومن رافض لذلك، وأخيرا فمن سائر مع هذا المعسكر ومعاد له.

ولعل من أوضح من حمل هذا الاتجاه هو الشيخ (محمد عبده)(١) الذي تبنى توضيح معالم الإسلام والدفاع عن ثقافته، مع التأكيد على أنه دين التطور والتجدد، وإنه لا يعارض المدنية الحديثة، لهذا تبنى جملة قضايا أثارتها الحضارة الغربية، مطالبا إعادة النظر فيها، كمركز المرأة، والطلاق، وتعدد الزوجات، والمناداة بالقومية، والوطنية، واقتباس النظام السياسي الغربي.

وقد استغل (قاسم أمين) ذلك كل الاستغلال، ليدعو إلى تحرير المرأة، وإعادة النظر بالعلاقات الاجتماعية، كما جاء كثيرون من بعد محمد عبده، يستغلون اتجاهه هذا، في الدعوة للقومية أو الوطنية، أو نبش الفرعونية من قبورها، أو فصل الدين عن الدولة، وشارك الغرب في تحسين هذا الاتجاه، لأنه يخدم أهدافه وأغراضه، ويقرب الاسلام فكرا والمسلمين شعوبا من الغرب، وكلما حصل هذا التقارب فإنه سيكون لمصلحة الغرب أولا، كما سيكون هذا ضد الشخصية الاسلامية، واستقلالها وذاتيتها.

٤- الاحتفاظ بالشخصية الاسلامية، مع الاستفادة مما أنجزته

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث: د. محمد المبارك ص ٥١ ط ٣.

الحضارة الغربية، وهذا الاتجاه نما متأخراً، وهو وليد تجربة الاتجاهات السابقة.

فهو من جهة يستمسك بالاسلام، حسبما جاء في أصوله، مع الوقوف عند حدود الفكر الإسلامي، في متابعته الأصلية مع الحرص الشديد على تماسك الجماعة الاسلامية ووحدتها، والأخذ من الحضارة الغربية بكل مفيد، لا يتعارض مع الاسلام وأصوله، لأن الاسلام نفسه كدين لا يعارض هذا الأخذ، على شرط أن نميز بين الثقافة كمذهب وميزة للأمة، وبين الجوانب الأخرى من الحضارة كالصناعة والهندسة والعمارة وأمثالها، أن نميز بين الحضارة كمفاهيم وقيم، وما أنتجته.

ولعل أخطر ما في الحضارة الغربية قيمها الاجتماعية، وعلاقات الأفراد، فإذا تم استبعاد هذا الجانب، والحذر منه، مع الأخذ المستمر من الاسلام لجوانبه الروحية الخيرة، ومن الغرب ووسائله الميسرة، فهذا من غير شك سيجمع حسنات الشرق إلى قوة الغرب، ولو حصل هذا فربما وجدنا الغرب نفسه يستفيد منه، ويقتبس من غيره وهذا النهج بدأ فكريا، لكنه يتحول الآن إلى تيار نتيجة لتبني أكثر من جماعة في العالم الاسلامي له، حتى يمكن القول: إنه ما من قطر إسلامي يخلو من هذا التيار.

كما يصاحب هذا التيار فقدان للجوانب السلبية من الحضارة الغربية، ولعل من الرواد في هذا (الامير شكيب أرسلان) في كتبه وأشهرها (لماذا تأخير المسلمون وتقدم غيرهم).

ومحمد اقبال الشاعر المشهور، وتابعهم كثير في هذا الميدان، والملاحظ أن الغرب بكل مؤسساته يقف خلف المتغربين، ويدفع بهم إلى مكان الصدارة والزعامة، سواء أكانوا أفرادا أو جماعات، على حين يضع السيف فوق رقاب الآخرين، فيحاربهم بالإهمال أو يسلط عليهم حكامهم يسومونهم سوء العذاب، ويتهمونهم بأقبح التهم وأكذبها، وبإمكان التيار الأخير أن يعمل الكثير من البناء من ذلك[1]:

١- إعادة الثقة الى المسلمين برسالتهم وثقافتهم ومستقبلهم.

٢- رد الاعتبار للقيم الاسلامية، ورفع ما أثير حولها من شبهة وشكوك.

٣- السير بالثقافة الاسلامية من نقطة الركود، التي وقفت عندها في حياة المسلمين، الى حياة المسلم المعاصر، حتى لا يقف مسلم موقف المتردد بين أمسه وحاضره.

٤- تقديم تفكير يقوم على نقد بناء، ويخلص الى اعتبار قيمة واحدة، وهي قيمة الاسلام في التوجيه الاسلامي.

٥- الكشف عن الاسلام مصدر قوة وغلبة في نفسها، ومصدر قوة في الحياة كذلك.

٦- إيجاد تيار كبير في البلاد الإسلامية يدعو الى تحقيق محافظة

---

(١) الثقافة الاسلامية لعبد الكريم عثمان ص ١١٩.

المسلمين على الشخصية الإسلامية، وتميزها واستقلالها.

٧- إعادة الوحدة الفكرية للمسلمين، ومحاولة تكوين رأي موحد.

٨- الكشف عن المخاطر التي يتعرض لها الاسلام والمسلمون، مع كشف الخصوم، وفضح أساليبهم، وطرقهم وأهدافهم.

النظم المعادية

أولا: الرأسمالية:[١]

الرأسمالية كلفظة استخدمت للتدليل على النظام الذي هيمن على الغرب منذ انحطاط النظام الاقطاعي.

وقد ساعدت التغييرات، التجارية والزراعية والصناعية، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على انتشار الرأسمالية، وقد قضت على العديد من النظم الإقتصادية الأخرى.

وفي القرن العشرين، عظم أمر الرأسمالية بفعل عوامل داخلية وخارجية، وراحت تتحول من الفردية المطلقة إلى العمومية، إلا أن هذا التطور يعتبر مخالفا كليا لأصولها الأولى.

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ٤/ ٨٣٩.

نبذة عن أصلها:[1]

أصل الرأسمالية في الغرب قديم، إذ أن مبادؤها الأولى عرفت وازدهرت في العصور الوسطى، ولكن التطور الصناعي والتجاري أعاد بناءها مجددا، وصراع العمال مع أصحاب الأعمال، ساهم في تطورها.

وعلى العموم يمكن تقسيم مراحل تطورها إلى ثلاثة مراحل، كما هو رأي دائرة المعارف البريطانية، يختلف بعضها عن بعض.

١- الرأسمالية المبكرة من ١٥٠٠- ١٧٥٠ م:

فقد كانت صناعة الثياب في نهاية العصور الوسطى في أوروبا، من أكثر الصناعات، بسبب تطور آلات الغزل، وتوفر مواد الخام، وقد تطورت بسرعة خلال القرون: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وخاصة في انجلترا.

وقد ساهم في تكوين الرأسمالية في أوروبا الغربية ثلاثة عوامل في هذه المرحلة وهي:

(أ) الحظر الديني على العمل الشاق.

(ب)تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد.

(جـ)دور القيادات الوطنية في تأمين المبالغ المطلوبة، وكيفية تكوين موقف النصرانية من الرأسمالية.

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ٤/ ٨٣٩.

موقف النصرانية من الرأسمالية:

حاربت الكاثوليكية خلال العصور الوسطى، الثراء والبذخ والغنى، باعتبار ذلك مما يصرف عن عبادة الله، فاعتبرت الغني لصا، والبنوك رجسا من عمل الشيطان.

وكانت الكاثوليكية تمنع الربا أول الأمر، لكنها ما لبثت أن سقطت فيه، حتى صارت أموال الكنيسة والقسس تستثمر في البلدان الجديدة، ويؤخذ عنها فوائد، ثم جاء البروستانت ليعملوا في النقيض، فحالفوا الرأسمالية وشجعوها.

ثورة الأسعار:

ومما كان له الأثر الكبير على الرأسمالية كنظام، وعلى توزيع الدخل في أوروبا، هو تدفق الفضة والذهب من مناجم (المكسيك وبوليفيا والبيرو)، فقد ارتفعت الأسعار ما يقارب ثلاثة أضعافها ما بين ١٥٤٠ - ١٦٤٠ م، وكان لهذه الزيادة أثرها، فزادت الايجارات، وتحسنت الزراعة، وبالمقابل قلت الأجور، وحصل تضخم مالي أدى الى استياء العمال.

كما نشطت التجارة والاستيراد، وتنظيم الاحتكار في بلدان أوروبا الغربية.

٢ - الرأسمالية الكلاسيكية من ١٧٥٠ - ١٩١٤ م:

خلال القرن الثامن عشر، بدأت الرأسمالية تتحول من التجارة

للصناعة، فبعد أن كانت التجارة عماد الرأسمالية، راحت تتحول الى الصناعة، والهيمنة الصناعية، بفضل تكدس الأموال، التي استعملت في الإختراعات وتنميتها، بينما لم يتيسر ذلك من قبل.

ومن الرواد الأوائل في هذا (آدم سميث)، الذي وضع كتابه المشهور (بحث في طبيعة وأسباب ثراء الأمم).

ثم جاء دور الإستعمار، وما صاحبه من الاستثمارات في العالم وما نتج عنه من خطر التنافس، بحيث قاد ذلك إلى نشوء الإحتكارات، بين عدد من الشركات عرفت باسم (التروست).

٣- المرحلة الأخيرة من ١٩١٤ وما بعدها:

لقد سجلت الحرب العالمية الأولى، نقطة تحول في تطور الرأسمالية، فقد استعمرت إفريقيا، وقسمت آسيا إلى مناطق نفوذ، وبقيت أوروبا مركزاً للتجارة العالمية، ولكن بعد الحرب راحت الأسواق التجارية تتقلص، وصرف النظر عن مستوى الذهب إلى الاتجار بالعملات الوطنية، وهنا سيطرت المصارف والبنوك، في كل من أوروبا وأمريكا، لكن الشعوب الإفريقية والآسوية ما لبثت أن راحت تقاوم الإستعمار، وتثور ضده، فانحطت أوروبا الغربية، كما بدأت الرأسمالية في شرق أوروبا تتفتت.

وقد دمرت الثورة الشيوعية الرأسمالية، في شرق أوروبا، وقضت عليها.

المآخذ والمستقبل:

يرى البعض أن التطور الرأسمالي الأخير، قد فاق أي تطور، خلال قرون، ومن المآخذ:

أن الرأسمالية ليس فيها جهاز يؤمن الخدمة التامة، لذلك فان مشكلة البطالة تظل تتكرر في أوروبا وأمريكا، بشكل أزمات متلاحقة.

كما أن فقدان المساواة بين العمال والمحتكرين، زاد في الهوة، وشدد من قوة الإحتكار.

كما أن الخوف من الكساد، وانتشار البطالة، قد يقود إلى مغامرات حربية وغيرها، من أجل تلافي ذلك.

وقد درس العلامة (الصدر) الرأسمالية، وسجل بعض المآخذ[1]، وقد وجد أن حجر الزاوية في المذهب، هو حرية الإنسان في الحقل الإقتصادي، سواء في التملك أو الإستغلال أو الاستهلاك، فالحرية هي:

١- وسيلة لتحقيق المصالح العامة.

٢- سبب التنمية للإنتاج.

٣- تعبير عن كرامة الإنسان وحقه في الحياة.

والملاحظ أن الرأسمالية تهمل القضايا الروحية والخلقية

(١) اقتصادنا ١/ ٢٣٦ الطبعة الثانية.

للإنسان، وتهتم بالقضايا المادية فقط، ومع هذا فقد فشلت فشلا ذريعا في التوفيق بين مصالح الفرد والجماعة، حتى بلغ من هدرها الكرامة الإنسانية، نتيجة لهذه الحرية الرأسمالية، أن بات الإنسان نفسه سلعة خاضعة لقوانين العرض والطلب.

فاذا ازدادت القوى البشرية العاملة، وزاد المعروض منها على مسرح الإنتاج الرأسمالي، انخفض سعرها، فيهبط بأجورهم إلى مستوى قد لا يحفظ لهم حياتهم.

وما يصيب المحتوى الروحي للأمة، من شرارة تلك الحرية المجردة، أقسى وأمر... فما ظنك بفرد يتجاوب مع المفهوم المطلق للحرية الرأسمالية، إذا تطلبت منه القيم الخلقية والموقف الإجتماعي شيئاً، من المفاداة والتضحية بمصالحه الخاصة، وما يمنع المجتمع الرأسمالي، إذا كان يؤمن بالحرية الرأسمالية المجردة، عن كل الإطارات الروحية والخلقية، أن يسخر مصائر الكتل البشرية لحسابه، ويستبعدها لقضاء مأربه؟، والواقع التاريخي للرأسمالية هو الذي يجيب على هذا السؤال، فقد قاست الإنسانية أهوالاً مروعة على يد المجتمعات الرأسمالية، نتيجة خوائها الخلقي، وفراغها الروحي، وطريقتها في الحياة، وسوف تبقى تلك الأحوال وصمة في تاريخ الحضارة المادية الحديثة، وبرهانا على أن الحرية الإقتصادية التي لا تحدها حدود معينة، من أفتك أسلحة الإنسان بالإنسان، وأفظعها إمعانا في التدمير والخراب، فقد كان من نتاج هذه الحرية مثلا تسابق الدول الأوروبية بشكل جنوني، على

استعباد البشر الآمنين، وتسخيرهم في خدمة الإنتاج الرأسمالي[١].

ثانياً: الشيوعية

تقوم الشيوعية على دعامتين هما «المادية التاريخية، والماد الجدلية».

المادية التاريخية هي تفسير للتاريخ، كيف بدأ وإلى ماذا صار وإلى ماذا سينتهي.

أما المادية الجدلية فهي عقيدة الاحزاب الشيوعية وحكوماتها

أولا: المادية التاريخية: يطرح ماركس[٢] هذا السؤال[٣]: (هو المبدأ الذي يحكم كل العلاقات بين البشر؟؟- ويرد عليه- إ الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه، وهو انتاج الوسائ التي يمدون بها حياتهم، وبعد الانتاج يكون تبادل ما أنتجوا، فع الانسان أولا أن يعيش ليستطيع أن يفكر لذا فإن الأمر النها الذي يقرر التغير الإجتماعي، يمكن أن يوجد فيما يحصل من تغيير أسلوب الإنتاج والتبادل، وليس في أفكار الإنسان أو أي شي آخر).

وقد طرحت الماركسية الفروض التالية:[٤]

---

(١) اقتصادنا ١/ ٢٣٦ الطبعة الثانية.
(٢) يهودي كان جده حاخاما، اشتهر بمذهبه المادي عاش بين ١٨١٨- ١٨٨٣ م
(٣) التفسير الاسلامي للتاريخ للدكتور عماد الدين خليل ص ٤١.
(٤) المرجع السابق ص ٤٧

١- في غمرة الإنتاج الإقتصادي يدخل الناس في علاقات معينة، ويضطرون- دون إرادتهم- إلى تكوين ظروف معينة. وهذه الظروف في الإنتاج تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى المادية.

٢- إن ظروف الإنتاج ككل تكون الكيان الإقتصادي للمجتمع، وعليه تقوم القوانين.

٣- الحياة الإقتصادية هي التي تعين وعي الإنسان وليس العكس.

٤- بعد بلوغ قوى الإنتاج مرحلة معينة من التطور، تصطدم مع ظروف الإنتاج الموجودة (أي نظام الإنتاج القائم).

٥- إن تاريخ البشرية منذ وجدت حتى اليوم، هو تاريخ صراع مستمر بين الطبقات، حيث كل طبقة تصارع غيرها، وتشن حربا لا انقطاع لها.

وهكذا ابتدأ المجتمع البشري بشيوعية بدائية أو جماعية، انتقل بعدها إلى نظام الطبقات، فكان الصراع بين السادة والعبيد، ثم بين سادة الاقطاع وعبيد الارض، وفي العصر الحاضر بين الرأسماليين والعمال، ويتجه التطور، بفعل القوانين المتحكمة فيه إلى نظام جديد، يخلو من الطبقات، ومن الصراع، والمصالح الاقتصادية المتضاربة، بل من الحكومة باعتبارها سلطة استغلال.

وهكذا فكل العالم ابتدأ بشيوعية بدائية، لينتهي بشيوعية لا تتبدل ولا تتغير.

بعض أقوال ماركس:

أ- يقول ماركس[1] (... فأسلوب الانتاج في الحياة المادية يعين الصفة العامة للعمليات الإجتماعية والسياسية والروحية (أي الدين) في الحياة... وليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين شعورهم. ولا يزول أي نظام اجتماعي أبداً قبل أن تنمو كافة القوى الانتاجية، التي يكون لها فيه مجال النمو...)

ب-يقول ماركس[2]: (ما المجتمع أيا كان شكله؟ إنه وليد النشاط المتبادل الذي يقوم به الناس. وهل لهم حرية اختيار هذا الشكل أو ذاك من المجتمع لأنفسهم؟؟؟ لا بكل تأكيد...)

ثانيا: المادية الجدلية:

إذا كانت المادية التاريخية مجرد تفسير للتاريخ، وتحديد لمساره، فإن المادية الجدلية هي عقيدة الأحزاب الشيوعية ودولها

---

(١) التفسير الاسلامي ص ٤٦.
(٢) التفسير الاسلامي ص ٤٧.

وهي التي تناقض الأديان وتحاربها كل المحاربة. فالمادية الجدلية ترى: (١)

١- إن الكون يتكون من مادة متحركة، حركتها تصاعدية، تقطع مستويات بعضها فوق بعض.

٢- نظراً لكثرة المستويات تتغير المادة في نوعها.

٣- إن المادة قديمة، وهي أصل الكون، ومنها نشأ الإنسان بالتطور والإرتقاء.

٤- ليس للمادة مصدر آخر، وهي أزلية لا تفنى.

٥- كل ما هو عقلي يتطور عما هو مادي.

٦- المادي الجدلي: هو من يعتبر الطبيعة المبدأ الأول، وان وجودها حقيقي، ولا يتوقف على غيرها.

٧- إن العالم لا سر فيه يعجز العقل عن إدراكه.

٨- الإنسان مالك مصيره، وسيد نفسه.

« النقد » (٢)

١- يرى ماركس أن الأفكار هي انعكاس للواقع الموضوعي على

---

(١) المسألة الاجتماعية للاستاذ عمر عودة الخطيب ص ١٧٢

(٢) اقتصادنا للصدر ١/ ٢١، وتفسير التاريخ لصديقي ص ٨٧، والمسألة الاجتماعية ص ١٥٤، والعدالة الاجتماعية لفؤاد العادل ص ٦٨، والتفسير الاسلامي للتاريخ ص ٤٩، ومجلة المسلم المعاصر العدد (٨) سنة ١٣٩٦

عقل الإنسان، وبناء على هذا، فإن ماركس وما جاء به، يمثل القرن الذي ظهر فيه، حيث صار النظر للثروة المادية وامتلاكها هو الهدف الوحيد للحياة، حتى عم الاستعمار، ودخلت الدول في صراع، فاندلعت الحروب، من أجل السيطرة على موارد الشعوب ونهبها. فاذا جاء رجل في ظل هذه الظروف، لينادي بأن عامل الإنتاج، هو الذي يضع كل شيء، ابتداء من فكر الإنسان إلى سائر نظمه، بما في ذلك الدين، فهو لم يخرج عما كان رائجاً في عصره، ولكن هل يصلح ذلك لجميع العصور؟؟؟

٢- جعلت الماركسية من «وسائل الإنتاج» العامل الأول والأخير، المؤثر في حياة الناس ونظمهم، فما هي وسائل الإنتاج هذه؟[١] (إن قوى الانتاج هي القوى التي يستخدمها الإنسان في الإنتاج الإقتصادي: من صفات الخصب في التربة، والخواص التي تتميز بها المعادن، والقوى الآلية والكيماوية في الطبيعة، وحرارة الشمس، وقوة البخار والكهرباء، وكذلك قوى الحيوان والانسان). ونلاحظ ما يلي: أ- إن هذه القوى كلها قديمة جداً. ب- مع قدمها مضت قرون طويلة، قبل أن يستفيد منها الانسان. جـ- إن الفضل في الاستفادة منها يعود لعقل الإنسان وذكائه،

---

(١) تفسير التاريخ ص ٨٧.

ولولا ذلك لأمكن للانسان البدائي أن يصنع حضارات راقية، لأن الادوات كانت بين يديه.

إن البخار موجود منذ وجد الماء والحرارة، فلماذا تأخر استخدام البخار؟؟

٣- إذا كانت وسائل الإنتاج هي العنصر الحاسم، وليس الإنسان، إذن يجب أن تتصرف المجتمعات- ذات وسائل الإنتاج المتشابهة تصرفاً واحداً، أو في الأقل تصرفاً متشابهاً، فهل هذا ما نجده في العالم؟؟؟

٤- في حياة الأمم أفراد تصرفوا، فكان مردود ذلك على أممهم خيراً أو شراً، فالرسول عليه السلام لو لم يبعث في العرب، فهل كان بإمكان وسائل الإنتاج أن تعوض العرب، عمن يقوم بهذا الدور؟

لو أن ثوار الردة دخلوا المدينة، وقضوا على أبي بكر رضي الله عنه ودولته، فهل كان بمقدور وسائل الإنتاج أن توجه تاريخ العرب والإسلام، نفس الوجهة؟

لو انتصر الأتراك والالمان خلال الحرب العالمية الأولى، أو انتصر الالمان والطليان واليابان في الحرب الثانية، فهل كان مسير التاريخ كما شاهدناه وعرفناه؟؟؟

٥- يرى ماركس- وهو يبرهن على قيمة العامل الاقتصادي- بأن المرأة مرت بمرحلة لم تكن تحترم فيها، وذلك في عصر

الصيد، لأنها لم تشارك بذلك، ولا في القتال، ولكنها في العصر الرعوي والزراعي اكتسبت الاحترام، لأنها كانت تعمل؛ والجواب: من أين لكم هذه المعلومات، عن هذه العصور السحيقة؟ ثم هل العمل يوجب الاحترام لأهله؟ لو صدق ذلك لكان العبيد أحق الناس بالاحترام، لكنهم كانوا أكثرهم عملاً، وأقلهم احتراماً.

٦- ترى الماركسية، أن وسائل الإنتاج هي التي تصوغ المجتمعات والأنظمة بما في ذلك، نظام الأسرة، والدين.

ويحق لنا أن نسأل: لماذا نجد اليوم عدة أديان في البلد الواحد وفي المدينة الواحدة، وأحياناً في الأسرة الواحدة؟ أليس من واجب وسائل الإنتاج- وهذه قدرتها الخارقة- أن توحد لنا الأديان مثلا، ولو في بلد واحد كروسيا؟. هذا اليهودي الذي يتعالى على البشر منذ آلاف السنين، وهذا الهندوسي، الذي يعتبر غيره نجساً، حتى ابن دينه «المنبوذ»، وهذا الأبيض في جنوب أفريقيا، الذي يحتقر الاسود، ويرفض التعامل معه مطلقاً، هل هؤلاء جميعا علمتهم وسائل الانتاج؟؟ أم هم يتصرفون بوحي من عقائدهم الفاسدة؟ بدليل أن أحدهم متى غير دينه ترك هذه المعتقدات، مع بقاء وسائل الإنتاج كما هي؟

٧- تؤكد الماركسية، على أن تغير وسائل الانتاج، يؤدي إلى تغير النظام، بل جميع الأنظمة، ولكن الواقع يكذب هذا، فمنذ

نهاية الحرب العالمية الثانية وإلى اليوم، ووسائل الإنتاج في تغير مطرد، مما لم يحدث له مثيل منذ قرون، فماذا حصل؟

لقد تجمد النظام الشيوعي في روسيا وتوابعها، وبقي على شكله الجماعي التعسفي، أما في الغرب واليابان مثلا، فقد بقوا على رأسماليتهم وفرديتهم، فأين إذن تأثير وسائل الانتاج؟؟

٨- في تفسير التاريخ قالت الماركسية: إن العالم بدأ شيوعيا، ثم تحول إلى نظام الرق ثم للاقطاع، وبعده للرأسمالية، وسوف ينتهي بالشيوعية.

ولكنا نلاحظ أن الدول الرأسمالية لم تصل الى الشيوعية، وبدل من ذلك قفزت دول مثل: كوبا وأثيوبيا وانكولا وموزنبيق الى الشيوعية، فهل تقدمت هذه الدول، فسبقت أوروبا وأمريكا واليابان، فتقدمتها في التطور؟؟

٩- تفسر الماركسية تاريخ العالم، بأنه صراع بين الطبقات، بينما شهد العالم حربين عالميتين، بين مجموعة دول، فهل هذا من حرب الطبقات أيضاً؟؟ لقد شهد العالم حروبا دينية، وأخرى عنصرية، فأين ذلك من الحروب الطبقية؟؟ وأخيراً هذه الحروب بين «الاشقاء في الاشتراكية» بين الصين وروسيا، وبين فيتنام وكمبوديا، وبين فيتنام والصين، فكيف نفسر ذلك ماركسيا؟؟

١٠- إدعاء الماركسية بأن المادة أزلية لا تفنى، ولا موجود سواها في الكون، يقتضي من «كهنة» الماركسية، أنهم بحثوا في الكون كله، فلم يجدوا شيئا سوى المادة. فهل هذا جزء من «علميتهم»؟؟

وهل هناك انسان يحترم نفسه، يمكن أن يدعي هذه الدعوى العريضة؟؟ أما بالنسبة لفناء المادة، فالثابت علميا أنها تفنى، أو هي قابلة للفناء في الأقل، فكيف تكون أزلية؟؟

وكذلك القول بأن العالم لا سر فيه، يقتضي معرفة كل ما في الكون، وانسان يحترم عقله لا يمكنه أن يدعي ذلك.

١١- إدعاء الماركسية بان الإنسان سيد نفسه، ومالك مصيره، يكذبه الواقع، فالانسان العاقل يشعر بأنه محكوم في القسم الأكبر من حياته، فمن منا اختار المجيء إلى هذا الكون؟ ومن منا يعلم متى يفارقه وبأية طريقة؟ ومن منا اختار قواه أو انفعالاته، أو ما يرثه من أهله وأجداده؟.

وحتى متطلبات الانسان، بعيدة عن متناوله، فلا بد من كدح وعمل، لسد حاجاته فهل بعد هذا ندعي بأن الانسان سيد نفسه، ومالك مصيره؟

وأخيراً فهل الانسان في روسيا «بالذات» مالك لمصيره، أم

هو مسمار في مصنع يدور مع الالة حيث دارت، ويتوقف متى توقفت؟؟.

١٢- المادية مذهب إلحادي، لذا فهي تقول للانسان، إنك جئت بالمصادفة، وليس لوجودك غاية، وليس لك في الحياة مهمة، وأنك غدا صائر إلى لا شيء...، وليس وراءك حساب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار.

ما أيسر أن يقول الإنسان لا أدري، ولا أعلم، فماذا قدمت او ستقدمه الماركسية للانسان، اكثر من قولها، إنك مخلوق تافه، بلا هدف ولا غاية، وليس أمامك حساب ولا عقاب فعش أياماً «كبهيمة» همها علفها، ثم لتذهب غداً إلى العدم.

ومع ذلك يصفها الكهنة «بالعلمية» ومادح نفسه يقرئك السلام.

الحركات المعادية

أولا: الماسونية:

جمعية سرية يهودية، يرجع تاريخها الى أيام اليهود الأولى[1] وقد مرت بمراحل عدة أهمها ما صاحب انتشار النفوذ اليهودي

---

(١) خطر اليهودية العالمية لعبد الله التل ص ١٤٣ طبعة ثانية.

وذلك خلال القرنين الاخيرين التاسع عشر والعشرين، ففي سنة ١٧١٧ م أعاد اليهود النظر في اسم الجمعية وأهدافها في انجلترا فبعد أن كانت تعرف باسم (القوة المستورة) صار اسمها (البناؤون الأحرار) كما جعلت لها أهدافاً براقة (الحرية- الإخاء- المساواة) بينما الهدف الحقيقي خدمة لليهود وتأمين سيطرتهم على العالم.

ومن بريطانيا انطلقت الماسونية لتبني محافلها في العالم، واستهدفت أمريكا حتى اذا جاء عام ١٩٠٧ م كان في أمريكا أكثر من (٥٠) محفلا، تضم أكثر من مليون أمريكي.

ومن المعروف أن للماسونية ثلاث مراحل:

١- ابتدائية رمزية.

٢- متوسطة ملوكية.

٣- كونية.

والأخيرة يحتكرها اليهود لأنفسهم وعن طريقها يوجهون المحافل والأعضاء كما يريدون.

لهذا اتسمت كل أعمالها بالسرية ويتضح ذلك من قسم الأعضاء:

(أقسم بمهندس الكون الأعظم، ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها، لا بالاشارة ولا بالكلام ولا بالحركات، وألا أكتب شيئا منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير- وأرضى- أن تحرق شفتاي بحديد محمي وأن تقطع يداي ويحز عنقي، وتعلق جثتي

في محفل ماسوني ليراها طالب آخر، ليتعظ بها، ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء لئلا يبقى آثر من جنايتي)[1].

والماسونية تحاول صياغة الإنسان مجددا كما تشاء، لذلك تطالبه بطرح جميع علاقاته السابقة، مع أهله ووطنه ودينه جانبا، ليبني علاقات جديدة بدلها[2]، وأهداف جديدة. جاء في نشرة يهودية عام ١٨٦١ م (إن روح الماسونية الأوروبية هي روح اليهودية في معتقداتها الأساسية، لها نفس المثل واللغة، وفي الأغلب نفس التنظيم، والآمال، التي تنير طريق الماسونية وتدعمها هي الآمال التي تنير طريق اسرائيل وتدعمه، ومكان تتويجها هو بيت العبادة البديع، حيث تكون القدس رمزا وقلبا منتظرا)[3].

وجاء في دائرة المعارف الماسونية الصادرة في فيلادلفيا[4] (يجب أن يكون كل محفل رمزا لهيكل اليهود، وهو بالفعل كذلك، وأن يكون كل أستاذ على كرسيه ممثلا لملك اليهود) لذا لا غرابة أن يصرح رجل(كفوستر دالاس)[5]، يتحدث عام ١٩٥٦ م في محفل الجمعية الأعظم فيقول (إن مدنية الغرب قامت في أساسها على العقيدة اليهودية في الطبيعة الروحية للانسانية، ولذلك يجب أن

---

(١) الماسونية منشئة ملك اسرائيل للزعبي، وخطر اليهود ص ١٤٥.

(٢) خطر اليهود ص ١٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٨.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٩.

(٥) وزير خارجية أمريكا الأسبق.

تدرك الدول الغربية أنه يتحتم عليها أن تعمل بعزم أكيد، من أجل الدفاع عن هذه المدنية التي معقلها إسرائيل)[1].

والعجب أن أمر الماسونية مع افتضاحه، فما زال الكثير من- العرب- يتشبثون بأن محافلهم لا صلة لها باليهود، كما أن الكثير من الدول ما زالت تهمل نشاط الماسونية مع خطرها، حتى أن آخر ما نشر عنها، أنها عرضت على أعضاء المجلس البلدي بالقدس القديمة، عشرات الملايين من الجنيهات، في مقابل السماح لها بإقامة هيكل سليمان، لأن ذلك من أهم أهدافها. فهل يخفى على أحد في العالم بعد كل ذلك صلتها وخدمتها لليهودية عموما، واسرائيل بشكل خاص؟!.

ثانيا: الصهيونية:

حركة يهودية لإعادة بناء اسرائيل وجمع اليهود، وهي منسوبة إلى جبل صهيون، الواقع في جنوب القدس، وقد مرت بمراحل متعددة، ابتداء من عودة السبي حتى اجتماع المجلس الأعلى اليهودي، بناء على دعوة (نابليون)، ثم اجتماع حكماء صهيون، وظهور الحركة الصهيونية الكبرى، التي قادها (هرتسل)، الصحفي النمساوي (١٨٦٠- ١٩٠٤)، الذي وضع كتابا أوضح أهداف الصهيونية، من جمع اليهود وتوطينهم في دولة يهودية خالصة لهم، وقد قابل لهذا الغرض السلطان عبدالحميد سنة (١٩٠١- ١٩٠٢م

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٥، وأمريكا مستعمرة صهيونية لصلاح سوقي.

وعرض عليه الفكرة مع عروض مالية سخية جداً، كتسديد ديون الدولة، وبناء جامعة، مع دفع مبلغ (٥٠) مليون جنيه هدية، على أن يسمح لليهود بالاستيطان في فلسطين، لكن السلطان طرده ورفض جميع العروض، فكان ثمن ذلك أن حقد عليه اليهود، فعملوا على الإطاحة به، وتدبير انقلاب ضده، ثم نفيه هو وعائلته حتى مات في المنفى[1]. ومن ثم انتقل (هرتسل) الى الانجليز ليضغط عليهم، من أجل السماح باستيطان اليهود في شبه جزيرة سيناء، حيث عاش أجدادهم هناك، إلا أن قلة الماء جعلت العملية تفشل.

ثم عرض الإنجليز على (هرتسل) مشروع إقامة دولة يهودية في (أوغندة) بأفريقيا، فرضي هو، لكن اليهود رفضوا هذا المشروع، وأصروا على العودة لفلسطين، ولم يمت هرتسل، إلا بعد أن نظم الحركة الصهيونية، وجعل لها مؤتمرات سنوية دورية، وكان أولها في مدينة بازل سنة ١٨٩٧م بسويسرا، واتخذ قرارات سرية وعلنية، أما العلنية فهي تأسيس دولة لليهود بفلسطين، على أن يسبق ذلك شراء الأراضي، وتنمية موارد اليهود، وانعاش الثقافة العبرية، وإلهاب المشاعر الوطنية لليهودية، وكان من نتيجة ذلك حث أغنياء اليهود على البذل والتضحية، من أجل تحقيق أهداف الصهيونية، أما القرارات السرية فقد أطلق عليها (مقررات حكماء صهيون).

---

(١) وحين عزل نفي إلى سالونيك في اليونان ووضع في بيت ليهودي خال من الأثاث حتى نفي الى أوروبا.

وقد تسربت إلى جريدة في روسيا، فترجمتها الى الانجليزية، ونشرتها، فهاج اليهود وجمعوا الجريدة وأحرقوها، لكن بعض اليهود أيدوا صحتها، ومنهم (هنري كلين)، الذي نشر عام ١٩٤٥ م مقالا أوضح فيه، صدق تلك القرارات، كما أثبت ذلك القاضي (ارمسترونج) في كتابه الخونة[١].

واذا أنكر أهل الأرض هذه المقررات، فيمكن بسهولة ويسر أن نجد أصولها في آيات التوراة ونصوصه، بل إن ما في التوراة أكثر مما في هذه المقررات، فهل يتبرأ اليهود من التوراة كذلك؟.

والآن نعرض بعضا من هذه البروتوكولات[٢]:

١- إن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطبائع النبيلة، إذن فخير النتائج في حكم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب (البروتوكول الأول).

٢- إذا أعطي الشعب الحكم الذاتي فترة، فمن تلك اللحظة تبدأ المنازعات والاختلافات، وتبدأ المعارك الاجتماعية، وتندلع النيران في الدول، وهكذا تخرب، وتقع في أيدينا، (الاول).

٣- إن الصحافة هي القوة العظيمة، التي بها نحصل على توجيه الناس، ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذاً وبقينا وراء الستار (الثاني).

---

(١) الخطر اليهودي ص ١٦٥.

(٢) الخطر اليهودي للتل ص ١٦٦، وللتونسي ص ١١١- ٢١٢.

٤- نحن نحكم الطوائف باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء ، التي يؤججها الضيق والفقر ، وهذه المشاعر ، هي وسائلنا ، نكتسح بها بعيداً ، كل من يصدونا عن سبيلنا . (الثالث).

٥- ... وتجريد الشعب من السلاح ، في هذه الأيام ، أعظم أهمية من دفعه إلى الحرب ، وأهم من ذلك ، أن نستعمل العواطف المتأججة في أغراضنا ، بدلا من إخمادها . (السادس).

٦- ولضمان الرأي يجب أولا أن نحيره كل الحيرة ، بتغييرات من جميع النواحي ، لكل أساليب الآراء المتناقضة ، حتى يضيع الأميون (غير اليهود) في متاهاتهم. (الخامس).

٧- سنبدأ في سرية بتنظيم احتكارات عظيمة ، لتكون الثروة بأيدينا ، ولتفقد الشعوب الثقة بحكومتها ، يوم تقع الازمة السياسية . (السابع).

٨- يجب علينا أن نكون مستعدين لمقابلة كل معارضة ، باعلان الحرب على جانب ما يجاورنا من بلاد تلك الدولة . التي تجرؤ على الوقوف في طريقنا ، ولكن إذا غدر هؤلاء الجيران ، فقرروا الإتحاد ضدنا ، فالواجب علينا هو خلق حرب عالمية (الثامن).

٩- لقد حفرنا هوة سحيقة ، بين السلطات الحاكمة البصيرة ، وبين قوى الشعب العمياء ، ففقد الاثنان بذلك ، معنى

وجودها، وصارا كالأعمى وعصاته، لا يساوي كل منهما شيئاً على انفراد.

١٠- يجب أن لا نتردد لحظة في أعمال الرشوة والخديعة والخيانة، إذا كانت تخدم أغراضنا، إن الغاية تبرر الواسطة.

هذه مقتطفات تمثل خطر الصهيونية، كما تمثل أفكار حكمائها، وقد مرت الصهيونية عبر التاريخ بعدة أدوار، يقول المؤرخ اليهودي (إيلي ليفي)[1]: (فنحن إذا أمعنا النظر جيداً نرى أن تاريخ الصهيونية يتناول أربعة أزمنة مختلفة)..

١- زمن الثورة

٢- الزمن السابق لهرتسل.

٣- الزمن المعاصر لهرتسل والذي يبتديء من سنة ١٩٠٤-١٩١٨ م.

٤- الزمن التالي لتصريح بلفور.

ولعل الصهيونية وخلفها الدعم اليهودي العالمي، بما له من قوة مالية واعلامية ونفوذ سياسي، تشكل في الوقت الحاضر، وربما في المستقبل، أخطر الحركات المعادية للإسلام والمسلمين، ومن مهماتها حشد اليهود في فلسطين، واعادة اسرائيل إلى الحدود التي ورد ذكرها في التوراة أكثر من مرة، وهي من النيل إلى الفرات، ومن

(١) خطر اليهودية للتل ص ١٧١، ويقظة العالم اليهودي لإيلي ليفي ص ١٦ مطبعة النظام.

جنوب حماة حتى جنوب المدينة المنورة بـ (١٦٠) كيلومترا.

ثالثا: القاديانية:

يتفق جميع الذين كتبوا عن القاديانية من المسلمين، على أنها فرقة أوجدها الانجليز لخدمتهم، وشق وحدة المسلمين، وإحداث البلبلة في صفوفهم[١]. كما أن القاديانيين أنفسهم لا ينكرون صلتهم بالاستعمار البريطاني، الذي بقي يحكم الهند عشرات السنين، فكان من بين مخلفاته القاديانية.

١- مؤسس القاديانية: هو (ميرزا غلام أحمد) القادياني، المتوفي سنة ١٩٠٨ والمولود سنة ١٨٣٩ م. وفي سنة ١٨٨٩ دعا الناس لمبايعته على أنه مجدد العصر، وأنه كالمسيح عليه السلام في خلقه، وفي سنة ١٨٩١ أعلن أن المسيح قد مات، وأنه هو المسيح الموعود، والمهدي. وفي سنة ١٩٠٠ م صار يسمى نفسه بالنبي. وفي سنة ١٩٠٤ م أعلن أنه (كرشنا) وهو معبود هندوكي[٢]، وقد انشقت القاديانية إلى شطرين:

(أ) القاديانية الأصلية.

(ب)الأحمدية أو جماعة لاهور.

---

(١) انظر ما هي القاديانية للمودودي، والقاديانية ثورة على النبوة المحمدية والاسلام للندوي، وتاريخ المذاهب الاسلامية لأبي زهرة ومجلة العروة الوثقى للافغاني.

(٢) ما هي القاديانية للمودودي ص ٢١- ٢٤.

٢- علاقتها بالانجليز: إن هذه العلاقة ليست سراً. بل إن زعماء الطائفة يفاخرون بذلك، ومن أقوالهم، يقول مؤسسها: (لم تبخل عائلتي ولم تضن بدماء أبنائها، في خدمة مصالح الحكومة الإنجليزية أبداً[١]. وقوله: لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الانجليزية ومؤازرتها، وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر الإنجليز، من الكتب والنشرات، ما لو جمع لملأ خمسين خزانة)[٢].

ويقول (لقد ظللت منذ حداثة سني، أجاهد بلساني وقلمي، لأصرف قلوب المسلمين، إلى الإخلاص للحكومة الانجليزية، ولما فيه خيرها والعطف عليها، وأنادي بالغاء فكرة الجهاد، التي يدين بها بعض جهالهم، والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة)[٣].

فاذا أضفنا لهذا، أن الانجليز سبق أن اغتصبوا حكم الهند من المسلمين، علمنا الهدف من وراء هذه الصداقة، ومن منع الجهاد، والحمل بشدة على كل منادي به. بل وصل الحد الى درجة القتال في صف الانجليز ضد المسلمين[٤].

---

(١) ترياق القلوب تأليف الميرزا غلام أحمد ص ١٥ وما هي القاديانية للمودودي ص ١٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٢.

(٣) المرجع السابق ص ١٢.

(٤) ما هي القاديانية ص ٩- ١٢.

وقد لخص الشيخ أبو زهرة ما أتى به القاديانيون بما يلي[1]:

١- إن مؤسسها قد أعلن أنه اكتشف قبر السيد المسيح، وأنه في كشمير، وبهذا ينكر أنه رفع إلى السماء.

٢- إن روح السيد المسيح قد حلت فيه، وإنه المهدي المجدد.

٣- إدعى لنفسه معجزات منها: ما حدث من كسوف الشمس، وخسوف القمر سنة ١٨٩٤، وإنها كانت لأجله.

٤- إنه رسول من عند الله، وحيث أن هذا يصطدم مع فكرة ختم النبوة، فقال: إن نبوته ناقصة، وإن ختم النبوة هي بالنسبة للنبي الذي سبقه، بمعنى أن عيسى ختم نبوة موسى، وأن محمداً عليه السلام ختم لنبوة عيسى وهكذا، ثم انتقل بعد ذلك ليصرح نبوته، كما تقدم من غير وصف بالنقصان.

٥- وأخيراً فإنه مرسل من عند الله، وإنه يخاطبه ويفسر شريعته ويجددها، ومن تفسيراته:

(أ) إن أهل الديانات التي مدحها القرآن الكريم هم القائمون في هذا الزمان، فالقرآن ذكر بالخير اليهودية والنصرانية، وأصحابها اليوم تنطبق عليهم هذه الأوصاف، لذلك يجب موالاة الانجليز والاعتراف بفضلهم، ووجوب طاعتهم، ويقول مؤسسها: إن الاسلام

---

(١) تاريخ المذاهب ص ٢٧٠.

قائم على أصلين هما: طاعة الله تعالى، وعدم البغي على الحكومات، التي وطدت الامن، وصانت الأرواح، وهي الحكومة البريطانية[١].

(ب) إنتهاء الجهاد، لأنه استنفذ أغراضه، فلا داعي إليه الآن. يقول ميرزا غلام: (أنا لا أعتقد أني هاشمي قرشي سفاح، ينتظره الناس من بني فاطمة، يملأ الأرض دما.. نعم أدعي أني المسيح الموعود، الذي يعيش متواضعا مثل المسيح، متبرئا من القتال والحرب... وأنا متأكد من أن أتباعي كلما زاد عددهم، قل عدد القائلين بالجهاد المزعوم، لأن الإيمان بي كمسيح ومهدي معناه رفض الجهاد[٢].

٦- إن غير القاديانيين لا تجوز الصلاة عليهم، كما لا يجوز للمرأة القاديانية أن تتزوج غير قادياني وعلى العكس، يجوز للقادياني أن يتزوج غير قاديانية[٣].

ونظراً لهذه الآراء، فقد جرى اتفاق بين العلماء على خروجهم من الاسلام، مما جعل الجماعة الأحمدية (جماعة لا هور) على القول: بأن الميرزا لم يكن نبيًا، إنما هو ملهم ومحدّث، وليس بنبي، كما أن

(١) المرجع السابق ص ٢٧٣.
(٢) تبليغ الرسالة ص ١٧ وتاريخ المذاهب لأبي زهرة ص ٢٧٤.
(٣) تاريخ المذاهب الاسلامية لأبي زهرة الطبعة الاولى ٢٧٨.

المقصود بمنع الجهاد هو الهجومي، وليس الدفاعي، كل ذلك من أجل أن يظلوا داخل المجتمع الاسلامي، فتتاح لهم الفرصة للعمل.

وهكذا تكون القاديانية حركة إنشقاق من داخل المسلمين وجدت من أجل نشر أفكار معينة، تخدم أهداف الانجليز، كما أنها تتعامل حاليا مع اليهود، وتلقى عناية ورعاية منهم، ولها مكتب تبشيري على جبل الكرمل في حيفا، كما لها مسجد ومدرسة ومكتبة عامة، ومجلة شهرية اسمها (البشرى)[١].

رابعا: البهائية:[٢]

طائفة بدأت في صفوف المسلمين وانتهت منفصلة عنهم، وكان مؤسسها الأول (ميرزا علي الشيرازي) المولود سنة (١٢٥٢ - ١٢٨٢م) إيراني الأصل شيعي المذهب، ولما كان من عقائد الشيعة الإمامية أن الإمام الثاني عشر (المهدي) قد غاب في سامراء بالعراق، وأنه سيخرج يوما ليملأ الأرض عدلا... فقد أعلن (الميرزا) أنه الباب إلى هذا الامام، وأنه أوتي علم الإمام النوراني، لهذا فقد أصبح حجة في نظر اتباعه، ولا معقب لقوله[٣] لانه ينقل علم الإمام.

ثم لم يلبث أن ادعى أنه المهدي، وأن الله حل فيه، وأنه

---

(١) ما معنى القاديانية ص ٦٥.

(٢) حقيقة البابية والبهائية: دكتور محسن عبد الحميد، المكتب الاسلامي

(٣) تاريخ المذاهب الاسلامية لابي زهرة الطبعة الاولى ١/ ٢٥٧.

السبيل لظهور موسى وعيسى[1]، ثم لم يقف عند هذا الحد خصوصا وأنه قد وجد من الناس من يلتف حوله، فراح يعلن كل يوم اعتقادا جديداً، منافيا للاسلام والعقل[2]، من ذلك:

١- عدم الأيمان باليوم الآخر والحساب والعقاب.

٢- إنه المثل الحقيقي لكل الانبياء، وفيه تتجمع كل الرسالات.

٣- إن الله تعالى حل فيه، وإنه سيحل في آخرين من بعده.

٤- إن الإسلام ليس آخر رسالة.

٥- ساوى بين حصة الرجل والمرأة في الإرث.

٦- دعا الى المساواة المطلقة بين الناس.

٧- إن في الحروف أسرارا يأخذها من أرقامها، ويستنبط منها أشياء غريبة، ولها في نظره تأثير هام، وجعل للرقم (١٩) منزلة خاصة عالية.

وقبل أن يموت اختار من أتباعه اثنين هما (صبح أزل، وبهاء الله) ليخلفاه، وقد نفتهم السلطات من إيران، فكان الأول في (قبرص)، والثاني في(أدرنة) بتركيا، وكان اتباع البهاء هم الأكثر، فنسب المذهب إليه.

---

(١) المرجع السابق ١/ ٣٥٨.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٥٨- ٢٥٩.

وقال البهاء بأن روح الله ظهرت فيه، (فهو جمال الله) الذي يشرق ويتألق، ونظرا لهذا الهذيان، فقد نفته الدولة العثمانية الى (عكا)، وهنا راح يكتب، ومن أشهر ما كتب (الكتاب الأقدس)، وادعى أنه أوحي إليه ذلك وحيا.

وزاد أن ما يدعو إليه هو ديانة مستقلة، بينما كان أستاذه يعتبر نفسه مجدداً للإسلام فقط، وقد زعم البهاء أن ديانته عالمية، تجمع الأديان كلها، والأجناس كلها، كما كان يدعي علم الغيب، ويعلن عن نبؤاته، وكان منها قوله: إن حكومة نابليون الثالث ستسقط، دون أن يحدد لها زمنا، فكان ذلك بعد أربع سنوات، فزاد من تصديق الناس له، وأهم ما طلع به[1]:

١- نبذ الارتباط بالاسلام كليا.

٢- المساواة بين البشر من غير قيد.

٣- منع تعدد الزوجات والطلاق، إلا للضرورة، ورفع العدة.

٤- إبطال الصلاة، باستثناء صلاة الجنازة.

٥- جعل قبلة جديدة هي مكان إقامة (البهاء).

٦- استبقى الوضوء والغسل من الجنابة، ربما من أجل النظافة.

٧- ألغى ما جاء به الاسلام من حلال وحرام، ليشرع بالعقل بدله.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٦٢- ٢٦٣.

٨- أنكر وجود أي سلطة للعلماء، أو لرجال الدين مهما كانت دياناتهم.

ولما مات خلفه ابنه (عباس أفندي)، الذي كان ملما بالمدنية الغربية وثقافتها، لهذا فقد طور المذهب، بما يلائم العقل الغربي، فاستبعد فكرة الحلول والخوارق والمعجزات، كما اتجه إلى الكتب المقدسة في اليهودية والنصرانية، يدرسها ويأخذ عنها، وبهذا صارت البهائية مزيجا غريبا، فيه القليل من الإسلام، والنصرانية واليهودية، والاجتهادات الشخصية، والثقافة الغربية[١].

لذلك راجت في الغرب أكثر من رواجها في الشرق، مدعية أن بعض الأسفار سبق أن بشرت بظهور (عباس) من قبل، مشيرة بذلك إلى ما ورد في الاصحاح (١٩) من سفر أشعينا: (لانه يولد لنا ولد، ويعطى أبناء، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبا، مشيرا إليها أبديا رئيس السلام)[٢].

ولعل فيما فعله القضاء المصري من عدم اعتباره البهائية ديانة سماوية، بل وليست ديانة مطلقا، وإنما هي آراء، قصد بها هدم الاسلام، هو أصدق وصف لها[٣].

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٦٤.
(٢) المصدر السابق ص ١/ ٢٦٥ والعقيدة والشريعة.
(٣) تاريخ المذاهب ١/ ٢٦٦.

علاقة البهائية باليهود والانكليز

يقول الدكتور محسن عبد الحميد[1]: (لقد قضى الميرزا حسين البهاء حياته، في الدعوة الى التجمع الصهيوني على أرض فلسطين، قال في كتابه الذي زعمه أنه وحي ينزل عليه من السماء: «هذا يوم فيه فاز الكليم بأنوار القديم، وشرب زلال الوصال من هذا القدح الذي به سجرت البحور. قل تالله الحق، إن الطور يطوف حول مطلع الظهور، والروح ينادي من في الملكوت: هلموا وتعالوا يا أبناء الغرور، هذا يوم فيه سرع كرم الله شوقاً للقائه، وصاح الصهيون قد أتى الوعد، وظهر ما هو المكتوب في ألواح الله المتعالى العزيز المحبوب) ويقول ابنه عبد البهاء... «وفي زمان ذلك الغصن الممتاز، وفي تلك الدورة سيجتمع بنو إسرائيل في الارض المقدسة، وتكون أمة اليهود التي تفرقت في الشرق والغرب والجنوب والشمال مجتمعة».

ثم يقول: «فانظروا الآن تأتي طوائف اليهود الى الأرض المقدسة، ويمتلكون الأراضي والقرى، ويسكنون فيها، ويزدادون تدريجياً، إلى أن تصير فلسطين جميعا وطناً لهم..) أ هـ.

---

(١) البابية والبهائية ص ٢٣٥.

يقول الدكتور محسن:[١] (إن تشبث الانكليز بحياة الميرزا، قد بلغ حدا دعاهم إلى أن يتصلوا به، عن طريق القنصل البريطاني العام في بغداد «أرنولد بروكميال» فلقد كاتب البهاء، وطلب إليه أن يتجنس بالجنسية الانكليزية، ليحافظ على حياته... »

وأما علاقة الانكليز بعبد البهاء عباس، فعلاقة قوية، بلغت حد العمالة العلنية، والخدمة المباشرة لمصالحهم، فلقد كان عبد البهاء الجاسوس الانكليزي، الذي كان يعرف كيف يقوم تحت جنح الظلام بتطبيق ما عقدوا عليه العزم من هدم الاسلام، وسلخ جزء عزيز من بلاده لتسليمه الى اليهود.

...... إن ولاء عبد البهاء عباس، زعيم البهائية، بعد والده للانكليز، يتأكد لكل إنسان، عندما يقرأ تلك الخطب الرنانة، التي ألقاها في نوادي لندن وكنائسها ومجامعها. يقول مخاطبا الانكليز: «إن مغناطيس حبكم هو الذي جذبني إلى هذه المملكة... ... إني عرفت الأمة الانكليزية، والذين قابلتهم هم أنفس طيبة يشتغلون للسلام والاتحاد....)

ونختم هذا الحديث برأي الكاتب أمين سعيد[٢]: (ويعتمد

(١) البابية والبهائية ص ٢٤٠.

(٢) الثورة العربية الكبرى ١/ ١٢٧ مطبعة الحلبي.

الانكليز على هؤلاء البهائيين المستعربين في أعمالهم السرية ببلاد العرب، ويثقون بهم، لما خبروه من إخلاصهم).

وعلى العموم، فكل الأدلة تثبت، أن هذه الجماعة صارت معول هدم في جسم الأمة، وهي حليف لجميع أعدائها، ولذلك فقد أفسحت لها اسرائيل، لعلها تخدمها بما تقوم به بين إخوتنا من أهل فلسطين، كما أفسحت لها الدول الغربية لتروج أفكارها، ولتعرض بضاعتها الفاسدة على طلبتنا المبتعثين وغيرهم.

المراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - آثار الحرب، الدكتور
٣ - الأحكام السلطانية، أبو يعلى، الطبعة الثانية.
٤ - أحكام المرتد، نعمان عبدالرزاق السامرائي، الطبعة الأولى.
٥ - أصل العائلة، أنجلز، دار التقدم بدمشق.
٦ - أسس الاقتصاد في الإسلام والنظم المعاصرة، أبو الأعلى المودودي. الطبعة الأولى.
٧ - الإسلام، سعيد حوا، الطبعة الأولى.
٨ - الإسلام والمرأة المعاصرة، البهي الخولي، الطبعة الثالثة.
٩ - الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلتوت، دار العلم.
١٠ - الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، الطبعة السابعة.
١١ - الإسلام في عصر العلم، فريد وجدي.
١٢ - الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، دكتور محمد يوسف موسى، مطابع الكاتب العربي بمصر.
١٣ - الإسلام والحياة، دكتور محمد يوسف موسى، مكتبة وهبة.

١٤- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، الطبعة الأولى.
١٥- الإِفصاح، ابن هبيرة، الطبعة الأولى.
١٦- إقتصادنا، الشيخ محمد باقر الصدر، دار الكتاب اللبناني.
١٧- أمريكا مستعمرة صهيونية، صلاح دسوقي، الطبعة الأولى.
١٨- بروتوكولات صهيون، محمد خليفة التونسي.
١٩- البيان الشيوعي الاول، ترجمة خالد بكداش، دار الفارابي.
٢٠- التوراة.
٢١- التربية الدينية، لجنة بوازارة المعارف العراقية، الطبعة الأولى.
٢٢- التبشير والإستعمار، عمر فروخ والخالدي.
٢٣- التشريع الجنائي، عبدالقادر عودة، الطبعة الخامسة.
٢٤- التكافل الاجتماعي في الإسلام، الشيخ محمد أبو زهرة، الطبعة الأولى.
٢٥- تفسير التاريخ، عبدالحميد صديقي، ترجمة الجوادي، الدار الكويتية.
٢٦- التفسير الإسلامي للتاريخ، دكتور عماد الدين خليل، أوفسيت الميناء.
٢٧- تاريخ المذاهب الإسلامية، الشيخ أبو زهرة.
٢٨- الثورة الكبرى، أمين سعيد، مطبعة الحلبي.
٢٩- الجريمة والعقوبة، الشيخ أبو زهرة، مطبعة الانجلو مصرية.

٣٠- الحضارة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، دار العربية بيروت.
٣١- حضارة العرب، غوستاف لوبون.
٣٢- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، العقاد، دار الهلال.
٣٣- حقوق المرأة في الإسلام، الشيخ محمد بن عرفة، الطبعة الأولى. مطبعة المدني.
٣٤- حقوق المرأة في الإسلام، أبو بكر الجزائري.
٣٥- حقيقة البابية والبهائية، دكتور محسن عبدالحميد، الطبعة الثانية.
٣٦- الحلال والحرام، يوسف القرضاوي، الطبعة السادسة.
٣٧- خطر اليهودية العالمية، عبدالله التل، الطبعة الثانية.
٣٨- دائرة المعارف البريطانية (بالانكليزية).
٣٩- الرسالة الخالدة، عبدالرحمن عزام.
٤٠- روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، الطبعة الثانية.
٤١- الزواج والطلاق في الإسلام، زكي الدين شعبان.
٤٢- سقوط الحضارة، كولن ولسن، ترجمة أنيس زكي، الطبعة الثانية.
٤٣- السياسة الشرعية، شيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة الشعب.
٤٤- الطبقة الجديدة، ميلوفان دجيلاس، دار الكتاب العربي.
٤٥- العلاقات الدولية، الشيخ أبو زهرة، الدار القومية.

٤٦- العدالة الاجتماعية، فؤاد العادل، دار الكتاب العربي.
٤٧- الغارة على العالم الإسلامي، شاتليه، الدار السعودية.
٤٨- فقه السنة، سيد سابق، دار البيان بالكويت.
٤٩- الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية، المرحوم محمد المبارك، الطبعة الثانية.
٥٠- الفكر الإسلامي الحديث، الدكتور محمد البهي، دار الفكر.
٥١- فلسفة العقوبة، الشيخ أبو زهرة، الطبعة الأولى.
٥٢- فهرست القرآن الكريم، فؤاد عبدالباقي.
٥٣- القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام. الشيخ الندوي.
٥٤- القانون الدولي العربي، محمود كامل.
٥٥- القانون الدولي العام، دكتور حامد سلطان.
٥٦- الماسونية منشئة ملك اسرائيل. الزعبي.
٥٧- ما هي القاديانية، ابو الأعلى المودودي.
٥٨- مباحث في علوم القرآن، دكتور صبحي الصالح.
٥٩- مباحث في علوم القرآن، الشيخ مناع القطان، منشورات العصر الحديث.
٦٠- المبسوط، السرخسي الحنفي، الطبعة الأولى.
٦١- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الشيخ أبو زهرة، دار الفكر.

٦٢- مجلة المسلم المعاصر. الكويت.
٦٣- مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، دار القرآن ببيروت.
٦٤- المرأة بين الفقه والقانون، الدكتور السباعي، المكتبة العربية.
٦٥- المرأة العربية في ظلال الإسلام، عبدالله عفيفي، دار الكتاب العربي.
٦٦- المرأة في القرآن الكريم. العقاد.
٦٧- المسألة الاجتماعية، عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة.
٦٨- معالم الثقافة الإسلامية، دكتور عبدالكريم عثمان، الطبعة الثانية.
٦٩- نحو انسانية سعيدة، المرحوم محمد المبارك، الطبعة الثانية.
٧٠- النظم الإسلامية، دكتور صبحي الصالح. دار العلم للملايين.
٧١- نظام الاسرة وحل مشكلاتها في ضوء الإسلام، دكتور عبدالرحمن الصابوني، دار الفكر.
٧٢- يقظة العالم اليهودي، إيلي ليفي، مطبعة النظام.

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة